ماهية القلب

محيي الدين بن عربي



تحقيق

قاسم محمد عباس





ماهية القلب

محيي الدين بن عربي

ماهية القلب

تحقيق
قاسم محمد عباس





Author: Mohi AlDine Bin Arabi	المـــؤلـــف : محيي الدين بن عربي
Title: Essence of Heart	عنوان الكتاب : ماهية القلب
Realization by: Kassem Mouhammed Abbas	تحــقــيق : قاسم محمد عباس
Al- Mada P.C.	النــاشـــر : المدى
First Edition : 2009	الطبعة الأولى : ٢٠٠٩
Arabic Copyright (c) Al- Mada	الحقوق العربية محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ -فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

E-mail:almada112@yahoo.com

كل حب لا يفنيك عنك ولا يتغير بتغير التجلي لا يعول عليه، كل حب تبقي في صاحبه فضلة طبيعية لا يعول عليه، كل حال يدوم زمانين لا يعوَّل عليه.

ابن عربي رسالة لا يعول عليه

تأويل القلب
في نظرية المعرفة عند ابن عربي

في الإطار الشامل لنظرية المعرفة عند (ابن عربي)، تستمد الممارسة المعرفية طاقتها من الكيفية التي تتحصل بها هذه المعرفة من جهة، ومن تدخلها في حصر مضامينها من جهة ثانية، عبر ترشيح الخيال كمفهوم، والنظام النفسي كمجال لعملها، وهو في الأساس تحليل لنظام (ابن عربي) النفسي الذي يخضع بشدة لهذه التجربة، الأمر الذي أظهر نظرية المعرفة عنده في إطار مختلف للموقف الفلسفي، وإن تم التعامل مع ابن عربي بوصفه ثيوصوفياً، إلاّ أن منهجه يؤشر مفارقة ملحوظة للمحدد الفلسفي، لاختلاف المنهجين في التعامل مع النفس الإنسانية، التي عولجت عند الفلاسفة كعقل، وعبر مذهبه الثيوصوفي فرّق (ابن عربي) بين نوعين من المعرفة: تلك التي تنتمي للعقل، والأخرى العائدة للنفس، لذا لا مناص من تسميتها بالمعرفة الذوقية والتأكيد على حدسها، المحدد الأساس في المعرفة عند (ابن عربي)، بفهم الإيمان بمعرفة تبتعد عن السبب الاستطرادي، وتقترب من الإدراك المباشر للحقيقة في جوهرها، كموقف آخر إزاء معرفة العقل المرتبطة بمفهومي الاحتمال والارتباط، وهي معرفة قريبة إلى حد كبير من مفهوم (اسبينوزا) للمعرفة التي حددها بإذابة الوعي الإنساني.

إن ارتبـاط المصطلح بلفظ "الذوق" يشـيـر إلى نوع من الحكمـة ـ تعتمد التجربة المباشرة ذات الإدراك الفطري ـ يضفي عليه المتصوفة سمة المعرفة الإلهيـة، أي المعرفـة "اللدنيـة"، أو "السرية"، أو "الغـيـبيـة". لذا لا يتوفر لنا أن نتداول مصطلح "الذوق"، أو أي مصطلح صوفي آخر بديل، شرط أن يفارق الاصطلاح أنواع المعرفة الأخرى.

إن التـقـسـيمات التـي يقدمـهـا ابن عـربي في (الفـتـوحات المكيـة) و(فـصـوص الحِكَم) و(مـواقـع النجـوم) لأنواع المعـرفـة[1]، تتـحـدد بفـاعليـة الكشف الذوقي، وتشـتـرك بمجموعـة شروط واضـحـة إلى حد كـبـير منهـا: الفطرة[2] والبعد عـن الاستدلال[3] وقابلية هذه المعرفة على التـحول المادي[4]، وتحدد نـتـائج هذه المعـرفة بموضـوع الحـقـيـقة[5]، ومن ثمَّ التطابق الذاتي مع

١ـ (علم العقل)، (علم الأحوال)، (علم الأسرار) ابن عربي: الفتوحات المكية: ١/٣٨.

٢ ـ بفـهـم أن العـقـل مكتـسـب، وهذه المعرفـة عائدة للفيض الإلهي، وتتجلى هذه المعرفة في الإنسـان وفق شـروط عرفانيـة محددة مثل قابلية الذهن، فضلاً عن أن هذه المعرفة ليست نتاجاً لنظام ما، أو تطبيق آلية انضباط، وإنما هي مستقرة في عمق القلب الإنسـاني، انظر ابن عربي: فصوص الحكم: ٣٧١.

٣ ـ يرى ابن عربي أنها وراء الاستدلال، وعند التعارض القائم بين الاستدلال والذوق، تتوجب التضحية بالاسـتـدلال لصالح الذوق، حتى وإن وجدنا أن ما أخبـرنـا به الأنـبـيـاء والأولياء يتضـارب مع الاسـتـدلال، يـتـوجـب علينا التـسـليم بما أخبـر بـه الأنبـيـاء والأوليـاء. وتتـوجب الإشارة إلى أن ابن عـربي قد يلجأ إلى الاستدلال في مواضع عدة، دون أن يعلق على ذلك، ولكنه يشير إلى صحته باعتباره منهجاً يتمتع بنوع من الصدق، وصواب الاستدلال وفق فهم ابن عربي هو صواب عرضي، لا يستدعي أن يتداخل مع المعرفة الإلهية.

٤ ـ تجـسـدهـا من خـلال شـريحـة معـينة (الأوليـاء)، وهي مـقـدرة من الأزل: "لكل منا مـقـام معلوم"، حسـب الفـهم القرآني، ولذا لابد من محاولة الإنسـان لإزالة الحجب عن هذه المعرفة في داخله، عن طريق إيقاظ الوعي الإلهي فيه، انظر فصوص الحكم: ٢٤٥ـ ٢٤٦.

٥ ـ بهدف تجاوز نتـائج التأمل المرتبطة بالاحتمال، فإن الذوق موضوعه الحقيقة ذاتها، وأنواع المعرفة الأخرى تؤدي إلى ظلال هذه الحقيقة، ولا مفر من اللجوء إلى الذوق باعتباره الوسيلة الوحيدة للحصول على المعرفة عبر: الشـهود المباشر للحقائق.

معرفة الحق[٦]، فضلا عن إنها معرفة عصية على الوصف[٧]، وفي النهاية يتوفر للعارف أن يتحقق عبرها من طبيعة الحقيقة[٨].

قد يوضح هذا التقسيم طبيعة السؤال عن كيفية تحصيل هذه المعرفة عند (ابن عربي)، ليبدو لنا فيما بعد دور هذا المفهوم في نظريته (الوحدوجودية)، وهي الإشكالية التي تعرض لها ابن عربي في أكثر من نص ومنها كتابه: (ماهية القلب)، من خلال آليات نفسية تعتمد القلب الإنساني حلاً رئيساً لتحقيق أهداف (الإنسان الكامل)، فما الذي يعنيه ابن عربي بالقلب تحديداً ؟ تعامل (ابن عربي) مع القلب أداة تبث من خلالها (المعرفة الذوقية)، وهي بمعنى آخر البؤرة التي تتجلى فيها المعرفة، وننبه إلى أنه لا يعني أبداً هذا العضو اللحمي الصنوبري الشكل

٦ـ يتبع ابن عربي هنا خطى الإشراقيين : بفهم أن النور هو المبدأ المدرك الوحيد في جميع الكائنات الواعية . فإن المعرفة القادمة من قنوات متعددة تنبع من مصدر واحد . ولهذا السبب تكون معرفته واحدة : فصوص الحكم : ١٥٨ . بفهم أن معرفة الحق تحصل بالحق ومن خلاله . كما أن معرفتنا له من خلاله . انظر تفصيل ذلك في الفتوحات المكية : ٢٣/١ ، ٣٩٣/٢ .

٧ـ لأنها تشبه المشاعر والادراكات . ولذا يصعب معرفتها خارج التجربة المباشرة . وعليه لجأ الصوفي إلى المجازات الغامضة والمضللة .

٨ـ عبر هذه المعرفة يكتسب الصوفي تصوراً شاملاً لطبيعة الحقيقة . فإذا كان المنهج العقلي يوصل إلى التنزيه المطلق للحق . فإن المنهج الذوقي يفارقه ؛ لأنه يجمع بين التنزيه والتشبيه . من خلال التجلي الإلهي . بمعنى آخر : عبر الكيفية التي يتكثر بها الواحد في الكثرة . ويدرك الصوفي في الوقت عينه كيفية اختلاف الواحد عن المتعدد . لنجد أن تنزيه الصوفي غير تنزيه الفيلسوف . ويمكننا تحديد هذا الاختلاف : بأن معرفة الصوفي شخصية . بينما معرفة الفيلسوف معرفة بالاسم فقط . لذا فإن (ابن عربي) ينكر على الغزالي موقفه من إمكانية تحصيل معرفة الحق من خلال معرفة العالم . راجع نفحات الأنس . عبد الرحمن جامي . : ٨٢ . وتعليقات عفيفي على فصوص الحكم : ٣٥٧ .

المستقر في الصدر، حتى وإن أشار هو إلى ذلك الشكل الأجوف بالنص، إنما يشير في الحقيقة إلى أي شيء آخر ـ على الرغم من أنه مرتبط به صورة ومعنى ـ يمكن تحديده بقدرة يتوفر لنا التعامل معها كدلالة للجانب العاقل من الكائن الإنساني (الروح)، ونلحظ أن لهذه القدرة ملكات عظيمة أولاها (العين البصيرة) ـ التي تذكرنا بالعين المادية ـ وموضوع هذه العين البصيرة الحقيقة ذاتها، وهي القادرة على الاشتغال ما وراء الفكر، إلا أن هذه العين مهددة بطباع النفس الحيوانية، ومجموع علاقاتها بالعالم المادي، ولذا فإنها ـ أثناء حركة المعراج ـ في تحرر مستمر من قيود ظلمة النفس، والطباع البشرية، وعند تحررها يعلن القلب عن اتصاله المباشر بالمبدأ العاقل للكون، أو بفهم آخر، بالتجلي التام للحقيقة الإلهية، ويكون الكشف التام، الذي يدرك من خلاله توحد العارف بالمعروف.

لاشك في أنه من المناسب الإشارة هنا إلى أن كل المواقف التي صاغها الصوفية عن القلب قد تأثرت بالفهم القرآني، وعمقت مجموعة من الدلالات لصياغة مفهوم أبعد عضّدته بمجموعة من الأحاديث المروية عن النبي (ص)، التي توزعت على مستويين محددين: الأول اعتبار القلب بؤرة للمعرفة[9]، والثاني: التأكيد على تغيرية وحركية القلب[10]،

---

٩ ـ "إن المعرفة فعل القلب" . وهو ما رواه البخاري في صحيحه . إيمان : ١٣ في الترجمة . "القلوب أوعية بعضها أوعى من بعض" – رواه أحمد بن حنبل : ٢/ ١٧٧ . (قلب وكيع فيه أذنان سميعتان) . (. . فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة) . الموطأ . الامام مالك . علم : ٢٠ .

١٠ ـ ما رواه ابن ماجة المقدمة : ١٠ . وأحمد بن حنبل ٤ / ٤٠٨ . حول تشبيه القلب بالريشة المعلقة بشجرة تحركها الريح . أو قول النبي (ص) : "إنما سمي القلب لتقلبه" . ابن حنبل : ٤/٤٠٨ . "لقلب ابن آدم أشد انقلاباً من القدر" . ابن حنبل : ٦/ ٤ .

ومن خلال الموقف القرآني، الذي اتخذ من القلب محلاً للكشف والإلهام، فإن الصوفية الأوائل قد حددوا معرفة القلب: بالمشاهدة، والفهم عن الله[11]، عبر تقسيمهم المفهوم على مستويين: الأول صفته الإيجابية المتمثلة بقبوله المعرفة والعلم الحقيقي، والثاني: صفته السلبية بفعل هيمنة الشهوات على القلب، إذ يتمثل المستوى الثاني بالغفلة في مقابل المستوى الأول بالذكر، ونلحظ تأثير فاعلية هذا التقسيم في مفهوم (ابن عربي)، وهو تقسيم يرجع إلى موقف مجموعة كبيرة من الصوفية الأوائل[12]. إن الصراع المتمثل بين ما هو إيجابي وما هو سلبي طبقاً لهذا التقسيم راجع إلى وقوع النفس بين الروح والعقل من جهة، وبين الجسم المادي من جهة أخرى، وبهذا الفهم فإن اهتمام النفس بما هو ظاهري يؤدي إلى تكدس الحجب على القلب، أو زيادة صدئه[13]، إن علاقة الظاهر بالباطن لا تقوم على ما هو انفصالي، بحكم موضع النفس، لذا فإن الظاهر يتضمن الأسباب والأغيار والأشياء، ويتركز رحيل العارف من الأسباب إلى المسبب، ومن السوى إليه هو، ومن الأشياء إلى رب الأشياء[14]، ولذا فإن استمرار التجلي الإلهي على المستوى الانطولوجي

---

١١ ـ "المشاهدات للقلوب ، والمكاشفات للأسرار" الروذباري ، السلمي الطبقات : ٨٧ . "أشرف القلوب قلب حي بنور الفهم عن الله" النخشبي ، السلمي الطبقات : ٣٥ .

١٢ ـ منهم شقيق البلخي : "طهر قلبك من عروض الدنيا ، حتى يدخل فيه حب الآخرة" السلمي الطبقات : ١٨ ، وانظر آراء أبي سليمان الداراني في الطبقات ومنها : "إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوات ، وطرد الغفلة من القلب" : ٢١ .

١٣ ـ "لكل شيء صدأ ، وصدأ نور القلب شبع البطن" الداراني ، الطبقات : ٢١ .

١٤ ـ "الزهد تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء" الشبلي ، الطبقات : ٨٣ ، وانظر قول المرتعش النيسابوري : "السكون إلى الأسباب يقطع القلوب من الاعتماد على المسبب" الطبقات : ٨٦ .

والمعـرفي يلغي وجـود كل أنواع الصـدأ من علـى مـرآة القلب من "ران" و"نكت" و"أقفال" و"عـمى"، بتـصور أن هذه المرآة هي موضع الحق[١٥] لكن الذي يعيق الرؤية إلى المرآة المسببات والسوى وهي تساوي الغفلة، في موازاة التجليات المستمرة، وذلك أن قلب العارف مسكون بالعلم الإلهي بغض النظر عن تصور العارف، وتتركز الإشكالية في غفلة العارف عن حقيقة العلم في القلب لارتفاع منزلته، وكلما ارتفعت المنزلة كانت العقوبة أسرع[١٦]، والغفلة في الواقع حجاب معرفي بين باطن الإنسان وظاهره، وهذا الحجاب هو العائق عن الكمال[١٧].

وقد تناثرت هذه المواقف من القلب قبل "ابن عربي" بشكل غامض ومعقد استطاع فيما بعد أن يصوغها ضمن نظريته في المعرفة[١٨] وإن تبع "ابن عربي"، تقسيماتهم القائمة على ثنائيات: الحق والباطل، الدنيا والآخرة، الملك والشيطان، الخاطر المحمود والخاطر المذموم، النور والظلمة[١٩]، وهي ثنائيات ذات نزعة زهدية، ومن ثم إشراقية تنشد إلى عدم النظر إلى الباطل الذي يذهب بمعرفة الحق من القلب[٢٠]، وقد استندت

---

١٥ ـ "للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلى له مولاه" ممشاد الدينوري، الطبقات: ٧٦ .

١٦ ـ "كلما ارتفعت منزلة القلب كانت العقوبة إليه أسرع" ابن أبي الحواري الطبقات: ٢٤ .

١٧ ـ نصر حامد: فلسفة التأويل: ٢/٨ .

١٨ ـ راجع آراء الصوفية حول القلب في اللمع، للطوسي: ٨٥، ١١٢، والطبقات: ٧ – ٨٧ .

١٩ ـ "يزول عن القلب ظلم الرياء بنور الإخلاص" ابن سالم، الطبقات: ١٠١، وانظر قول التستري: "من خلا قلبه من ذكر الآخرة تعرض لوساوس الشيطان" الطبقات: ٤٩، واحمد بن خضرويه: "القلوب أوعية فإذا امتلأت من الحق أظهرت زيادة أنوارها على الجوارح، وإذا امتلأت من الباطل أظهرت زيادة ظلمتها على الجوارح: ٢٦ .

٢٠ ـ راجع قول ابن مسروق: "حقيقة المعرفة أن لا يخطر بالقلب ما دونه" الطبقات: ١٠٨، وقول أبي بكر الدقي: "إن القلوب نزهت عن الغيوب لتأييد ورد عليها من الغيب" الطبقات: ١١٠ .

هذه الثنائيات إلى تقسيمات الصوفية لمفهوم القلب، فلابد إذن من تقديم قائمة كرونولوجية لرصد المفهوم قبل ابن عربي، فمنذ آراء: الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) عن القلب وتأثيرها في مفهوم المعرفة لديه، نواجه تقسيم (ابن عربي) المتأثر بتقسيم (المحاسبي) المحدد بشطرين: الأول يؤدي إلى معرفة الله، والثاني يؤدي إلى معرفة العالم، متناولاً مجموعة الخصائص الجوهرية للقلب عبر هذا الفهم[٢١]، ومن خلال هذين المحورين اللذين يشيران بوضوح لتأثر (ابن عربي) بتقسيمه للظاهر والباطن ارتبط الظاهر بمعرفة العالم، واختص الباطن بمعرفة الله، ويراد بذلك ظاهر الألوهة بباطن القلب، وباطن الألوهة بظاهر العالم، وقد هيأت آراء (المحاسبي) في القلب الفرصة لسهل التستري (ت ٢٨٣هـ) لأن يتعرض للموضوع بشكل تفصيلي عبر الطريق الذي عالج فيه النفس والروح، بوصفه قائماً على مستويين: الظاهر والباطن، إذ يمثل الباطن بالنسبة للظاهر، ما يمثله القلب بالنسبة للجسد، رابطاً بين القلب وبين مجموعة الملكات التي ينفرد بها الإنسان، مستفيداً من التقسيم ذاته الذي اقترحه (المحاسبي) مضيفاً تسميات جديدة مثل مقابلة الجهة اليمنى من القلب للنفس الرحماني[٢٢]، كوظيفة خلاقة وسامية للقلب، ومقابلة الجهة اليسرى للتناهي البشري المحكوم بالزفير الطبيعي، وهي الوظيفة ذاتها التي سنجدها فيما بعد عند (الغزالي) و(ابن عربي). إن نظرة القداسة التي وجهها (التستري) إلى القلب دفعته في النهاية لاعتباره العرش

---

٢١ ـ المحاسبي الرعاية: ٨٦، إذ يرى المحاسبي: "إن العمل بحركات القلوب في مطالعات الغيوب، أشرف من العمل بحركات الجوارح: ١٧.

٢٢ ـ سهل التستري كلام: ١١٠.

من تقسيم (النوري) أنه خصّ الفؤاد بالمعرفة، يتوفر لنا أن نقول: إنه لا يتعامل مع الإسلام والإيمان والمعرفة والتوحيد بوصفها مفاهيم منفصلة، وإنما مفاهيم ذات طبيعة تكوينية تستند إلى الفهم القرآني ومحدداته حول المعرفة، فالصدر وعاء الإسلام، والقلب وعاء الإيمان، والفؤاد وعاء المعرفة، واللب وعاء التوحيد، لنخلص إلى أنها جميعاً تؤدي إلى معرفة الحق؛ لأن (النوري) يرى أن التوحيد تنزيه الحق عن دركه، وهو مجال عمل اللب، والمعرفة إثبات الحق بصفاته العليا وأسمائه الحسنى، وهو مجال نشاط الفؤاد، والإيمان عقد القلب بنفي جميع ما تولهت به القلوب إليه من المضار والمنافع سواه عز وجل، وهو مجال فاعلية الإيمان، والإسلام التسليم في الأمور كلها سراً وعلانية وهو المجال الذي يسعه الصدر.

لنفهم أن (النوري) أراد من هذا التقسيم أنه لا تصح المعرفة إلا بالتوحيد، ولا يصح الإيمان إلا بالمعرفة، ولا يصح الإسلام إلا بالإيمان، فمن لا توحيد له لا معرفة له، ومن لا معرفة له لا إيمان له، ومن لا إيمان له لا إسلام له، ومن لا إسلام له لا ينفعه ما سواه[٣٥].

وعلى الرغم من أنه قد قدَّم تقسيمات عدة للقلب إلا أنه أكد على أن قلب المؤمن وحده، هو مجال المعرفة؛ لأنه يتضمن مجموعة من الأنوار: نور المعرفة، ونور العقل، ونور العلم. إلا أن نور المعرفة هو هدف العارف؛ لأن نور المعرفة كالشمس، ونور العقل كالقمر، وهي آراء تشير إلى مدى استفادة (ابن عربي) من ربطه بين موقف العقل وموقف الفيلسوف الذي يتوقف في منزلة القمر في رحلته، بينما يواصل الصوفي رحلته نحو البيت المعمور[٣٦].

---

٣٥ انظر مخطوط (مقامات القلوب) لأبي حسين النوري أوقاف بغداد : ٧٠٧١ .

٣٦ ـ لمزيد من التفاصيل ، انظر رسائل ابن عربي – شرح مبتدأ الطوفان : ٣٣ .

والقسم الثالث هو نور العلم، وهو كالكوكب بالنسبة للشمس والقمر، فيتم ستر الهوى بنور المعرفة، وستر الشهوة بنور العقل، وستر الجهل بنور العلم، هذه التقسيمات العديدة التي قدمها (النوري) للقلوب وصفاتها يجملها بمستويين شائعين في الفهم الصوفي: المستوى الأول يؤدي إلى الدنيا، والثاني يؤدي إلى الآخرة، ونلحظ أن مثل هذا التقسيم يذكر بتقسيم (المحاسبي) و(التستري) وغيرهما، حيث صاغ (ابن عربي) ذلك بالمستوى الظاهري والباطني، وهي - كما تبدو - إجراءات مألوفة تداولها الصوفية، هذا لو استثنينا (الحلاج) الذي أقام سايكولوجيته على آراء (المحاسبي) التي تأثرت جميعها بروحانية (النظّام)، إلا أن الجهاز النفسي (للحلاج) قد اعتمد ممارسة الولاء لمبدأ (القلب) أو (الروح) وذلك بتحديده للإصطلاحين. الأول الموجود في الداخل (القلب)، والثاني المعروف في الخارج بـ(الروح)، وإذا ما اتفق مع المحاسبي والخراز (ت٢٧٩هـ)، والذين جاءوا بعدهما، فإنه يرفض أن يخلط الاصطلاحين بـ(العقل) كما فعل (النظام)، أي أنه يأخذ بتقسيم سابقيه لأوعية القلب[٣٧] المتتابعة، وسلوك العارف بتحطيم حجبه في محاولة لبلوغ الله، إلا أن (الحلاج) قد طور بعض المعطيات القرآنية التي أشارت إلى أن القلب هو الأداة التي هيأها الله للتأمل، ولا يمكن لأية وظيفة أن تشتغل بدون الأداة، وتشير الأغطية المتتابعة للقلب - التي حددها (الحلاج) - إلى مساحة الاستفادة التي حققها (ابن عربي) في نصوصه، وهي تصورات حلاجية كشفت عن معنى إشكالي جديد،

---

٣٧ - أنظر تقسيمات منصور بن عمار، وأحمد بن خضرويه، وحاتم الأصم في الطبقات: ٢٤، ٢٦، ٣٢.

أدت في النتيجة لإنشاء مفهوم (القلب / الكعبة) لدى (الحلاج) ومعاصريه[38] بالإنطلاق من فهم الدلالات المتعددة لحديث (السعة القدسي)[39] وبفهم احتواء الإنية للروح التي تساوي عند (الحلاج) شاهد القدم، ولذا فإنه حدد هذه الأغطية بالنفس، وحدد علاقة القلب بالأكنة التي لا تزال إلا بالأنوار، وحجب الروح التي تفتحها الأذكار، وأقفال السر التي يفتحها القرب.

إن تقسيمه لمراحل (الطهر) القلبي جعلت من مفهوم (الاتحاد) حقيقة قائمة إلى حد بعيد، بعد معاناة مشاق هذا الاختفاء الكلي للقلب وراء هذه الحجب، ولذا فإن الاتحاد المشار إليه يلغي الإنية التي يجسدها البدن، وهو يشير ـ أي الاتحاد ـ إلى التخلي الكلي للقلب إلى الخلود بالله تعالى، بتصور أن الغشاء الأخير للقلب داخل النفس الشهوانية هو السر، الذي يشكل الشخصية الكامنة، أو الوعي المضمر داخل القلب العصي على كل مخلوق أن يناله: "أسرارنا بكر لا يفتضها وهم واهم"[40]، ولما كان هذا السر بانتظار رفع الحجب وورود الوارد الإلهي، فإنه يصعب على أي كائن أو ملاك أن يلامس هذا السر، وهو بعد الروح الكامنة هناك التي تبقى عصية على التمثل، لنخلص إلى أن المفهوم الذي يشترك فيه (الحلاج) مع (ابن عربي)، ونعني بذلك هو أن يستسلم

---

٣٨ ـ أمثال أبو العباس بن عطاء: "في البيت مقام إبراهيم . وفي القلب آثار الله تعالى . وللبيت أركان . وللقلب أركان . وأركان البيت من الصخر . وأركان القلب معادن أنوار المعرفة" الطبقات: ٦٢ .

٣٩ ـ (ما وسعني أرضي ولا سمائي . ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن)، وإجراء مجموعة من المقارنات بين البيت والقلب .

٤٠ ـ الحلاج / الأعمال الكاملة: فصل الأقوال: ٢٨ .

الإنسان إلى ذلك الغشاء، لينجلي (سر السر) الذي هو الله أو ضمير الضمير بمفهوم (الحلاج)، وهي المرحلة التي تتطابق فيها المقولة الإلهية مع المقولة الإنسانية: "حتى يكون بسم الله منك مثل كن بالنسبة له"[٤١].

قد يوفر عرضنا الكرونولوجي ـ الذي أحجمنا فيه عن التفصيل ـ رؤية التتابع التاريخي لتطور التعاطي مع مفهوم القلب عند الصوفية الأوائل وعلاقته بمواقف (ابن عربي) ضمن نظريته المعرفية، وهنا في الأقل يتوفر لنا تحديد أصالة جملة من التصورات وردت عند (ابن عربي)، والاقتراب في الوقت ذاته من مفهوم (المتعين في المعقول) عند الفلاسفة، لنجد أن هذا القلب هو العين التي يبصر بها الله ذاته وفق فهم (ابن عربي)، بمعنى آخر إنها الأداة التي يعرف بها الله تعالى ذاته في صور التجليات، ولا نعني بهذه المعرفة، معرفة المطلق، بسبب أن معرفته المطلقة عائدة إليه تماماً، لنواجه المحددات التي ينطلق منها (ابن عربي) عندما يقرر أن الإنسان هو مركز الوعي الإلهي عند الله، فضلاً عن ذلك اعتبار الله تعالى هو مركز وعي الإنسان بفهم الإعلان عن وجهي حقيقة واحدة ضمن الإطار العام لتوجهه الوحدوجودي بالانطلاق من حركية قلب (الإنسان الكامل)، هذه التغيرية التي تحدد لنا: أن الحقيقة تتجلى في لا متناهي الصور، عبر مجمل مراتب الوجود، حيث تنعكس في مرآة قلب الإنسان الكامل، الذي يتبع الحقيقة دائماً، ويكتشفها في كل الأشياء، لنتوصل إلى ما ذهب إليه (ابن عربي) في حركية (تخلّق = تغيّر) الجوهر الأزلي، الذي يقابل التغير في مقام أو حركية قلب الإنسان الكامل، هذه الحركية التي توازي تغير صور التجلي : "تطمئن القلوب

---

٤١ ـ المصدر السابق: ٤٢ .

في تقلبها، فتسكن إلى التقليب مع الأنفاس، وتعلم أن الثبات على حال واحدة لا يصح، فإن صورة الحق لا تعطي الضيق، ولا اتساع لها ولا مجال إلا في التقليب، ولا تقليب للحق إلا في أعيان الممكنات، وأعيان الممكنات لا نهاية لها، فالتقليب الإلهي فيها لا يتناهى، فهو كل يوم في شأن.. فهو (الإنسان) في كل نفس ينظر إلى آثار ربه في قلبه فيما يقيمه، وفي ما خرج عنه.. فلا يزال صاحب هذا المقام في كل نفس في علم جديد، فهو في خلق جديد، وغيره في لبس من هذا الخلق الجديد"[٤٢].

بالاعتماد على الدلالة الرمزية الشديدة التركيز للنص القرآني: (بل هم في لبس من خلق جديد)[٤٣]، يمكن أن ندرك أن هذه التغييرية تحدث رؤيويا من خلال تعامل (ابن عربي) مع حديث السعة[٤٤] عبر محورين أساسيين:

١ـ الكمالات الإلهية المتجلية في الكون تنعكس في قلب الإنسان الكامل[٤٥].

٢ ـ السعة هنا هي احتواء الوجه الإلهي (الذاتي والروحي) الموجود أصلاً في الإنسان، عند التعامل مع مستويات الدلالة في حديث: "من عرف نفسه فقد عرف ربه"[٤٦]، ومن خلال العلاقة المشار إليها بين القلب، وبين ثنائية الظاهر والباطن يتدخل الخيال في موازاة الظاهر، والقلب في

---

٤٢ ـ ابن عربي الفتوحات المكية: ٤/ ٢٢ .

٤٣ ـ ق ١٥: .

٤٤ ورد الحديث فيما سبق .

٤٥ ـ وفق مفهوم المضاهاة بين العالم الأصغر (الإنسان)، والعالم الأكبر (الكون)، انظر لابن عربي: التدبيرات الإلهية: ١٨-٣٢، ومواقع النجوم: ٥٧ .

٤٦ ـ العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الإلباس: ٢/ ٢٦٢ حديث رقم ٢٥٣٢ .

موازاة الباطن، وفق علاقة اتصالية تنطلق من (الخيال والظاهر) إلى (القلب والباطن)، لنؤشر فاعلية الخيال في نظرية (ابن عربي) المعرفية، وهي إجراءات لتجاوز ما هو انطولوجي وحسي، مثلما تتكرس فاعلية القلب ليتجاوز إجرائياً الباطن التأويلي، لينأى (ابن عربي) - أثناء تعامله مع الخيال - عن الفكر الفلسفي، الذي ضيق نشاط الخيال عبر إخضاعه لقوة العقل، الأمر الذي اعترض عليه (ابن عربي) مقترحاً الخيال كمرحلة أولى في بداية المعراج لدى الإنسان الكامل، الذي ينتهي بتلقيه عن الله سبحانه من خلال التجلي على القلب، الذي يكون في أقصى المعراج (المجال المعرفي)، المتمثل بالخيال الذي يعكس ما بداخل القلب، ولذا فإن (ابن عربي) يرى أن المعرفة الخيالية تبقى بحاجة إلى تأويل؛ لأن: " الرؤية الجبلية رؤية معنوية؛ لأنها ذات صورة ومعنى لذلك احتاجت إلى تأويل، وكان تأويلها منافياً لصورتها، حتى أول [يوسف] النجوم بإخوته، والشمس والقمر بأبويه، وذلك ظاهر في المباينة، وقد يحصل من هذا القبيل لغير النبي من عامة الناس"[٤٧]، في حين أن المعرفة الذوقية لا تحتاج إلى تأويل.

وللاقتراب من علاقة الخيال بالحواس المطروحة بإلحاح في مخطوط ماهية القلب سنضطر إلى تتبع ما هو قائم في متنه مع الإشارة إلى أن (ابن عربي) هنا قد اتبع منهج الاشراقيين بوضوح، ويتكشف ذلك من خلال مراجعة الآلية التي تدرك الحواس بها، إذ أن واسطة النور المدرك الذي هو قوام ماهيتها وحقيقة ما هو مدرك يتلخص بجمع الحواس للانطباعات من الوجود العيني وإرسالها إلى القلب، الذي يبثها بدوره

٤٧ ـ ماهية القلب : الفصل ٩ .

إلى العقل، الذي يكون مركزه في الدماغ[٤٨]، ليحدد هذه الانطباعات على أنها إدراكات حسية، فيدفعها إلى الخيال، الذي يبعثها إلى المفكرة، ومن ثم تحلل هذه الإدراكات (الذوقية) وتصنفها، وبحدوث الاستيعاب تخزن الذاكرة مجموعة من الإدراكات، التي تكون ذات فائدة للعقل: "فإذا استدعى ذلك منها القته إليه، ومحلها مؤخر الدماغ؛ لأنها بمعنى الخزانة، وهي الطريق الأقرب إلى القلب"[٤٩].

إن التحليل الذي يقدمه (ابن عربي) في هذا الكتاب يعتمد بشكل كبير على التحليل الذي قدمه إخوان الصفا، ويتفق معهم على أن الذاكرة أقرب الملكات إلى القلب، إلا أنه يستخدم اصطلاحات تذكر بالإشراقيين عندما قدم النور وصفاً محدداً للجوهر المدرك، فضلاً عن أن (ابن عربي) يؤشر بأنّ العامل المميز بين الملكات والقلب ـ بفهم أنه المبدأ العقلاني في الإنسان الكامل ـ هو النطق، العقلانية التي يختص بها القلب، ودون الحاجة للقيام بتحليل العناصر المختلفة للمفاهيم الإشراقية، يمكننا القول: إن آراء شيخ الإشراق السهروردي القتيل واضحة إلى حد كبير في نص كتاب (ماهية القلب)، وقبل ذلك في "الفتوحات المكية"، وفي رسائل أخرى. ذلك أن التصورات التي تحدد أن الوجود بأسره ليس إلا نوراً تتفاوت درجات شدته، إنما هي آثار واضحة لمواقف (السهروردي)، الذي يعرّف كل شيء تبعاً للنور، والنور المحض الذي أطلق عليه (السهروردي) اسم (نور الأنوار) الذي هو الذات المطلقة، مثلما يشير النور الأعلى إلى مصدر الوجود بأسره بفهم أن: "ذات النور

---

٤٨ ـ الآراء الواردة في الفصل التاسع من ماهية القلب تتطابق ونظرية الإدراك الحسي عند ابن سينا.

٤٩ ـ ماهية القلب: الفصل ٤.

المطلق الأول هو الله، يفيض إشراقاً دائماً به يتجلى ويوجد الأشياء جميعاً، وبواسطة أشعته يمدها بالحياة، إن كل شيء في العالم ناشئ عن نور ذاته، وكل الجمال والكمال منحة إحسانه، والحصول على هذا الإشراق هو النجاة"[٥٠].

وبذلك فإن الحواس تستمد جميع ممارساتها من نور القلب، كما تفعل مجمل الملكات العقلية، وذهب (ابن عربي) إلى أبعد من ذلك حينما حدد أن بإمكان القلب أن يدرك الكيفية المحسوسة حتى في فقدان المواضع القابلة للإدراك الحسي، فهو يبصرها في ماهيته، كصور أخرى عن المثل الأزلية للنفس: " ووجدنا القوة القلبية يشار إليها بالإدراك مع عدم إدراك الحواس الظاهرة في تلك الحالة، ويشار إليها بعدم الإدراك مع وجودها على الكمال في عالم الشهادة"[٥١]، لنصل بعد ذلك إلى أن التقسيمات التي اقترحها (ابن عربي) للقلب ـ وهي تقسيمات كنا قد أشرنا إلى بعضها عند سابقيه ـ تأثرت بالمجال المعرفي والمجال الأنطولوجي، وإن كان شكلياً، واتفق مع سابقيه بتقسيم القلب على مستويين: المستوى السلبي المتمثل بنسيان القلب لله (الغفلة)، والاستسلام لطبائع النفس، والالتفات للأعراض الدنيئة[٥٢].

---

٥٠ ـ السهروردي : حكمة الإشراق : ٧٩ ، Reading sfrom the mystics of Islam - m - smith لندن ١٩٥٠ . وانظر موقف ابن عربي في الفتوحات : "إن النور يدرك ويدرك به . والظلمة تدرك ولا يدرك بها . وقد يعظم النور بحيث إن يدرك ولا يدرك به . ويلطف يدرك ويدرك . ولا يكون إدراك إلا بنور في المدرك . . فالحق هو النور المحض . والمحال هو الظلمة المحضة . فالظلمة لا تنقلب نوراً أبداً . والنور لا ينقلب ظلمة ابداً . والخلق بين النور والظلمة برزخ لا يتصف بالظلمة لذاته . ولا بالنور لذاته" : ٣/ ٢٧٤ .

٥١ ـ ماهية القلب : الفصل ٤ .

٥٢ ـ انظر الفصل : ٦-٧-٨ من الكتاب .

والآخر إيجابي تمثل بتحول القلب إلى مجلى للتجلي الإلهي، ووعاء للمعرفة الحقيقية، بوصفه موضع الروح، التي هي إجمال لكل ما هو إلهي في الإنسان، وهنا يظهر التناقض الذي ينتج عن كون القلب هو (موطن الروح)، والروح من العالم الأعلى (عالم الملكوت)، والتجليات الإلهية دائمة لا تنقطع ولا تتوقف، إذن كيف يمكن للقلب أو الروح أن تنقطع صلتها بهذه التجليات[٥٣]؟

يعلق (د ـ نصر حامد أبو زيد) على الكيفية التي يزول بها هذا التعارض الذي يخلفه الاستفهام أعلاه بالرجوع إلى مواقف (ابن عربي) في "الفتوحات المكية"[٥٤] و"مواقع النجوم"[٥٥]، التي كشفت عن العلاقة بين الظاهر والباطن، أو الروح والجسم، والقائمة بعيداً عن الانفصال، بفهم الموقع الوسطي للخيال بوصفه حلقة بين الفكر والحس ، ووفق هذا الموقف نلحظ أن النفس إذا تركزت بالظاهر، وتجاهلت الباطن، تكون في مرحلة (الران)[٥٦]، فيغلف هذا الران مرآة القلب، ولهذا فإن دور التجليات الدائمة هو منع وجود (الران)، أو أي صدأ آخر على مرآة القلب[٥٧]، وعليه لابد من المجاهدات والمشاق كأفعال حقيقية تصد الغفلة والنسيان، لأنهما من الانشغال بالسوى والأسباب، وهي طارئة على القلب الذي هو في حقيقته مسكون بمعرفة الله، فالإشكالية تكمن في غفلتنا عن حقيقة المعرفة الباطنة في القلب، فتشكل الغفلة حجاباً

---

٥٣ ـ نصر حامد فلسفة التأويل : ٢١٧ .

٥٤ ـ ١/ ٩٠ .

٥٥ ـ ١٣٠-١٤٢ .

٥٦ ـ (بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) .

٥٧ ـ نصر حامد فلسفة التأويل : ٢١٧ .

معرفياً بين الباطن الإنساني وظاهره[٥٨]، وهو العائق الحقيقي في رحلة الإنسان نحو الكمال.

يتضح لنا من الإشارة السابقة إلى الخيال أن (ابن عربي) يجد في خيال (الإنسان الكامل) القوة الوحيدة التي يتم بواسطتها اجتياز الظاهر الإنساني إلى باطنه، أو اختراق كل التمثلات الوجودية العينية تصاعدياً نحو الباطن الروحي، بفهم أنها المعنى الحقيقي.

ومن مراجعة النصوص التي تناول فيها (ابن عربي) مفهوم الخيال، تتوفر لنا مواجهة اصطلاح غامض بوظيفة برزخية (توسطية) فالخيال قوة من قوى النفس تحتل موقعاً وسطاً بين الحس والفكر[٥٩]، وقبل ذلك فإن (ابن عربي) يسمي هذا الخيال (العماء)، الذي يمثل موقعاً وسطاً هو الآخر بين الذات المطلقة والعالم، أو (الخلق)، وهكذا يتنوع (الموقع الوسطي) على الصور العقلية التي هي الخيال، انطلاقاً من تعاملنا معها كوسط بين العالم الروحي، والعالم المشهود، إلا أن الإبهام الذي يرافق استخدام (ابن عربي) لمفهوم الخيال، يدفعنا إلى مواجهة معقدة مع ما يعنيه بالتحديد بهذا المفهوم، ولا يمكن الجزم بأن جميع مستويات الخيال هي ضمن موضوعات (التخيل)، فهو يماثل الملكة التي تنتج الصور العقلية من جهة، وتنشئ لنا مفهوم : صور المرآة من جهة أخرى، ويصعب إيجاد تصريح واضح حول هذا الاستخدام المتعدد للخيال، وعليه فإن الكون وفق فهمه خيال أصلاً، وكذلك الأحلام هي الأخرى خيال.

ويتضح أنه يصنف الأحلام والأوهام والصور التي نشاهدها في

٥٨ـ المصدر السابق : ٢١٨ .

٥٩ـ المصدر السابق : ٢١٦ .

اليقظة في منظار نفسي تندرج جميعها تحت قائمة الصور الموجودة في الذهن، ولا يمكن أن يكون لها وجود خارجي مستقل، وهي المجال الذي ركز عليه وتناوله لعرض مفهومه عن الخيال متجاوزاً الخيال (الماورائي) الذي لم يستطع أن يقدم له أي تحليل دقيق يدفعنا لتسميته بالخيال.

الإشكال الأساسي في مفهومه هو أنه لا يدخله تحت أي تصور نفسي، لكنه يمنحه موضعاً قائماً بذاته، ولا يعتمد على إنتاج الذهن له وحسب؛ لأنه يدخل وفق نظريته في مجال وسطي يفصل بين المطلق والعدم، كذلك يشكل مجالاً وسطياً بين الوجود الروحاني والوجود المادي، وسمى المجال الأول الفاصل الجامع بين المطلق والعدم (برزخ البرازخ)، ومن هذه التسمية لابد من الإشارة إلى الترتيب الوجودي لمستويات مختلفة للخيال تتحدد بالخيال المطلق، والخيال المنفصل، والخيال المتصل، فالأول يتطابق مع البرزخ الأعلى، والثاني مع الأدنى، ويرمز الثالث إلى المستوى البشري للخيال في إطاره النفسي[٦٠]، لكن (ابن عربي) يحدد أن الخيال المنفصل عائد تماماً إلى (الحضرة الذاتية)، وهي مستعدة لاستقبال الأرواح والمعاني متجاوزاً ما يمكن أن يقصده تحديداً بهذا الخيال المنفصل[٦١]، وانطلاقاً من الموقع الوسطي للخيال يحدد (نصر حامد أبو زيد): إن إدراك الحواس للأشياء إدراك ذاتي، والخيال مقلد للحس، فمن الطبيعي أن يختلف موقف ابن عربي في الخيال عن موقف الفلاسفة، مبرراً ذلك بأن ما ينطبع فيه من خارج أو داخل من الحس أو المصورة ينطبع انطباعاً ذاتياً[٦٢]، وبهذا التدخل الواسع للخيال

---

٦٠ ـ Creative Imagination in the Sufism of Ibn Arabi trans . p:57 - 68.

٦١ ـ (ابن عربي) الفتوحات : ٢/ ٤١١ .

٦٢ ـ نصر حامد فلسفة التأويل : ٢١٦ .

كوسيط بين الحس والفكر يعمق (ابن عربي) مفهوم القلب بوصفه بؤرة الوعي في الإنسان، وهو الذي يتحقق به اكتساب المعرفة الباطنية، الهدف الجوهري من معراج الإنسان الكامل المعرفي، لكن الإشكال الحقيقي في الآليات التي يحقق بها القلب هذه المعرفة.

ووفق نظرية (ابن عربي) الوجودية يمكننا القول: إن الموجودات تمثلات حقيقية للتجلي الإلهي، وهي في الوقت ذاته علة المعرفة التي يستقبلها القلب بعد أن تجلى مرآته بتوجيهه الهمة إلى الله، هذا لو تعاملنا مع الهمة كطاقة إلهية في قلب (الإنسان الكامل) التي يقسمها (ابن عربي) على قسمين: همة جبلية، وهمة مكتسبة[٦٣] إذ تؤثر هذه الهمة في عبور الإنسان الكامل من ظاهره وظاهر العالم إلى باطنه وباطن العالم، حيث يفرغ القلب من كل شيء سوى معرفة الله، تتحدد بهذا العبور أو الاختراق طبيعة التجلي، وهو تجل وجودي للظهور في أعيان صور الممكنات، والتجلي الإلهي المعرفي على قلوب العباد، إذن ثمة تجل وجودي وتجل معرفي، وما يهمنا هو الأخير لارتباطه بتجلي الله على القلب، ويراد بذلك تجلي الحقيقة من باطن الإنسان الكامل، وهنا يصبح في وضع استثنائي له القدرة على معرفة كل بواطن الوجود، الوجود المتمثل بمجموعة الحجب التي تغطي الحقيقة الإلهية، ولذا فإن تجلي الله لقلب الإنسان الكامل هو تحديداً إزالة الحجب، في موازاة مؤثرة بين باطن الإنسان الكامل (القلب) والألوهة، وبين الكون وجسد هذا الإنسان الكامل، وعبر هذه الموازاة تتوضح لنا غاية (ابن عربي) من رحلة المعراج

---

٦٣ ـ ابن عربي المواقع : ٨٥ ، النصوص : ١٤٠ .

عنده، وهو ما تعرض له في آخر كتاب (ماهية القلب) ونريد بهذه الغاية (الفناء)، وموقف (ابن عربي) يشترك وموقف (الطوسي) صاحب اللمع، و(القشيري) في الرسالة، لكنه يلخص لنا موقفه من الفناء في معنيين محددين: الأول زوال الجهل وبقاء المعرفة، والآخر مفهوم ما ورائي لفناء صور العالم (عالم الخلق) وبقاء الجوهر الكلي الواحد، مثيراً من جديد إشكالية حقيقية حول اصطلاح (الفناء)، وهي إشكالية عدم وجود فناء كامل؛ لأن الإنسان الكامل يعي تماماً أنه بلا وجود بذاته بوصفه صورة، وبسبب طبيعة هذه الصورة لا يمكن أن يفنى عنها تماماً عن طريق إثارة سؤال حقيقي: كيف يمكن للإنسان الكامل أن يموت عن ذاته ويبقى في الوقت نفسه واعياً بالحق تعالى باعتباره حقيقة؟ ولذا فإن الوعي ذاته يعني استمرار الذات[٦٤]، ومن هنا فإن ولع الصوفية بحديث السعة[٦٥] راجع لحركية القلب الذي يقابل تجدد الصور التي تنتج عن الألوهة، أو إنه يقابل المجال الظاهر من الألوهة ذات الدوام الفاعل : " فإذا كانت الألوهة لها ظاهر وباطن.. فمن الطبيعي أن يقع التجلي الوجودي والمعرفي من ظاهر الألوهة على باطن العبد، ومن ظاهر الألوهة على القلب، الذي يتنوع بها، وإذا كان القلب هو باطن النفس الإنسانية فالتجليات التي تقع من ظاهر الألوهة على باطن النفس تنتج علوم الباطن والأسرار"[٦٦]، وهو المجال الذي يعتمده ابن عربي (فناء الذات) في مرتبة معرفية ذوقية، يدرك بها الإنسان الكامل التوحيد الجامع

---

٦٤ ـ انظر الفصوص : ٢٣٠ :(إن اختفاء الصورة ، هو فناؤها في لحظة تجلي الحق تعالى في صورة أخرى) – مفهوم الخلق الجديد .

٦٥ ـ (ما وسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن) الغزالي :الإحياء : ١٥/٣ .

٦٦ ـ نصر حامد فلسفة التأويل : ٢٢٠ .

الذاتي لله تعالى، والمعرفة المتحققة هنا هي معرفة بعيدة عن أي خطأ، معترضاً على مفاهيم (صيرورة) هذا الإنسان الكامل، أو الموت عن الذات، واصماً هذا الموقف بالجهل؛ لأنه يرى أن رؤية الذات الإنسانية وحدها في هذه التجربة شرك حقيقي (إثبات الذات)؛ لأنه يفهم أن الاتحاد موجود أساساً، وعليه فإن الإنسان الكامل لا يصير أبداً الحق، انطلاقاً من عدم الإيمان بأي صيرورة لهذا الإنسان؛ لأنه - أي الإنسان - واحد ذاتياً مع الحق وفق الفهم (الوحدوجودي)، ويرى أن هناك فناءاً آخر عن آثار وصفات الذات (الفناء عن الرسم حالاً)، وهذا المقام يماثل النوم، فالإنسان الكامل ليس مع الحق، أو مع ذاته، بل هو نائم، أي بمعنى أنه جاهل، مستفيداً من الحديث: (موتوا قبل أن تموتوا)[٦٧]، ليتحدد لنا مجال المغايرة الناتج عن التجلي من الظاهر الإلهي على الباطن الإنساني، مثلما نفهم مجال المماثلة من وقوع تجلي تنوع الحقائق على القلب المتنوع.

ربط (ابن عربي) بين الحواس والخيال والقوة المصورة، واضعاً الخيال وسيطاً يتلقى من الاثنين، لكي يحدد أن القلب باطن النفس فهو يخضع لمفهومي الظاهر والباطن اللذين يخضعان لطبيعة مكونة من أصل وفروع، لذلك فإن الحركات الظاهرة تقوم على مجمل البواعث القلبية (الباطن)، مستدلاً على ذلك بأن الفرع الذي هو الظاهر يظهر فيه الإحساس الذي يعود أساساً إلى الباطن، عن طريق رجوع الفرع إلى الأصل: "إن الباطن أصل، والظاهر فرع، وإنما تظهر التصاريف الظاهرة الحسية بسبب البواعث الباطنة"[٦٨] [ماهية القلب: الفصل ٤]، ولما كانت

٦٧- سنن ابن ماجة : فتن ٢٤ .

٦٨ - مواقع النجوم : ٧١ وجه .

القوى الظاهرة هي الحواس الخمس، وهم الأمراء الملكوتيون: وهم عشرة: خمسة ملكية، وخمسة ملكوتية، فالأمراء الملكوتيون يسمون أرواحاً، والملكيون يسمون حواس، كحاسة البصر والسمع، وغيرها. وإن الأمراء الروحانية، تقابلها وهي: الروح الحيواني، والروح الخيالي، والروح الفكري، والروح العقلي، والروح القدسي، فإذا نفذ الأمر الإلهي إلى أحد هؤلاء الأمراء من القلب بادر لامتثال ما ورد عليه على حسب حقيقته.

ومجموعة الحواس الملكية والملكوتية جميعها تستمد ممارساتها من القلب، منبع الحرارة الغريزية الفاعلة في عالم الحيوان، وإدراك الحواس للأشياء يتم من خلال نور باطن فيها، ولهذا فإن نور باطن الحواس يلتقي مع نور الأشياء (التي هي مجال الأنوار الإلهية)، ومن هذا الالتقاء للنورين يحصل الإدراك، وعليه فإن جميع ما يتصل بالقلب من أنوار يتدرج حتى تتصل الأنوار العلوية بالقلب بواسطة عين اليقين، ويريد (ابن عربي) بعين اليقين تلك القوة العظمى التي تحصّل المواهب الإلهية لنوع محدد من البشر نموذجه (الإنسان الكامل)[٦٩]، وإذا انكشف عين اليقين وارتفعت عنه الحجب المانعة، اتصلت بالقلب أنوار أخرى عبر البصيرة، وفق عملية الفيض الأعلى المعبر عنه بنور اليقين[٧٠]: "وهو ترجمان الحق في قلب نزل به الروح على قلبك... فهو كلام الحق لنا من وراء حجاب تلك الصورة المسماة رسولاً؛ لأنه كان مرسلاً إلينا، أو نبياً،

٦٩ ـ (ابن عربي) / مخطوط ماهية القلب – الفصل ٧ .

٧٠ ـ ينحصر تصور (ابن عربي) باليقين المنزل ، وليس المراد بذلك البحث عن يقين إنساني ، لذلك اعتمد ابن عربي على يقين القرآن والسنة انظر الفصل السادس من الكتاب .

وقد تكون هذه رتبة الأولياء، فإذا انكشف الغطاء البشري عن عين القلب، أدرك جميع صور الموجودات"[٧١].

ووفق هذا الفهم النوري - تصورات إشراقية - يتصل ما هو وجودي بما هو معرفي طبقاً للنور الذي يدرك به المدرك، وبه تظهر المدركات للإدراك، هو النور الوجودي الذي بسطته حقائق الألوهة على الموجودات بما فيها حواس الإنسان الظاهرة، وقواه الإدراكية الباطنة، ومعنى ذلك أن كل مدرك قابل للإدراك، وكل مدرك يستطيع الإدراك"[٧٢].

وهنا نقترب من الجزء الأخير من رحلة العارف، ونعني بذلك مفهوم الفناء الذي يأخذ اتجاهاً مرحلياً يقتضيه الرقي الإنساني في أثناء المعراج، الأمر الذي جعل المعارف القلبية في حالة تزايد مع هذا الرقي في الرحلة نحو الفناء، أو الوصول إلى الكشف التام، وقد ترتب على طبيعة التدرج هذه في النهاية أن تلغى وظيفتا الظاهر والباطن؛ لأن الإنسان الكامل في هذه المرتبة (القطبية) يتساوى كل من ظاهره مع باطنه فإذا الظاهر باطن، والباطن ظاهر، لنكتشف أن هذه الثنائية من مقتضيات العالم الحسي، ولا بد من تحديد مراحل الفناء الذي يمرره (ابن عربي) في عدة مراحل (مقامات) تتكامل بشكل ملفت للنظر:

١-الفناء عن المعاصي[٧٣]

---

٧١ - ابن عربي الفتوحات: ٣ / ٣٠٣ .

٧٢ - نصر حامد : فلسفة التأويل: ٢٢٣ .

٧٣ - تعامل المتصوفة الأوائل مع هذا الفناء حرفياً ، وهو الابتعاد عن المعاصي ، إلا أننا وفق نظرية ابن عربي نجد أنفسنا إزاء موقف متناقض ؛ لأنه يرى أن مجموع الأفعال الصادرة في هذا المقام هي أفعال الحق ؛ لأن صاحب المقام في حضرة النور المحض ، ذلك لو أن العارف إذا ما أدرك أن أفعاله عائدة إليه شخصياً ، فإنه يعني في حضرة الظلمة المحضة .
الفتوحات: ٢ / ٦٧٥

٢-الفناء عن الأفعال[٧٤]

٣-الفناء عن الصفات[٧٥]

٤-الفناء عن ذات الإنسان الكامل[٧٦]

٥-الفناء عن السوى[٧٧]

٦-الفناء عن صفات الحق[٧٨]

إن مجموع المراحل (المقامات) التي جمعها (أبو العلا عفيفي) من الفتوحات المكية، وبوبها في رسالته للدكتوراه[٧٩]، لا تمثل التشكيل النهائي لفهم ابن عربي للفناء؛ لأن (ابن عربي) يطرح في كتابه (ماهية القلب) مفهوماً يوازي فيه بين الفناء وبين مراحل السعادة، عبر فهمه الصورة الإنسانية الكاملة (أحسن تقويم) الذي يعده ابن عربي ـ اللب ـ في قشرين: الأول الصورة التخطيطية ومتعلقاتها، والثاني ما يختص بعالم النفس (مجموعة الطبائع البشرية والأخلاق الذميمة)، فإذا تجاوز هذا الانسان عالم الصورة وعالم النفس عبر المعراج الأول، المعبر عنه

٧٤ـ يكون الله في هذا المقام هو الفاعل الوحيد ، إذ يعترض ابن عربي على المعتزلة والأشاعرة حول موضوع الحرية الإنسانية .

٧٥ـ المراد أن جميع الصفات والخصائص عائدة للحق ، انظر الفتوحات : ١ / ٩ ، ٢ / ٦٧٦ ، والفصوص : ١٤٧ ، ١٩٨ ، بفهم انصار جميع الحواس والخصائص التي يمتلكها الإنسان الكامل في ملكة واحدة يدرك من خلالها .

٧٦ـ المراد أن الصوفي هنا يتحقق من عدم ذاته الظاهرة ، وثبوت (بقاء) الجوهر الثابت (ماهية الحق) .

٧٧ـ يريد الفناء عن (كل ما عدا الحق) ، والفناء عن (الفناء) ليتضح قطع المتصوف لوعيه بذاته بوصفه كائناً متفكراً .

٧٨ـ وهو الغاية القصوى لسعي الصوفية المتركز في الفناء عن جميع صفات الحق وعلاقاتها ، بمعنى التفكير في الله بوصفه ماهية العالم ، وليس علته كما تذهب الفلسفة ، ولذا فإن الصوفي لا يعد الكون معلولاً لعلة ، وإنما (الحق المتمظهر) .

٧٩ـ A. E. The Mystical Philoso phy of muhid Din Ibnul ? Arabi A ffifi

بالفناء عن عالم الصور تجاوز إلى الثاني المعبر عنه؛ بالفناء عن عالم المعاني، وهو الفناء الأوسط، الذي ليس بعده إلا النهاية المعبر عنها: بالفناء عن الفناء الذي يتساوى مع مقام الحرية، وهنا يتحقق اتصال القلب بالمواهب الإلهية، لتستولي هذه المواهب على الصفات القلبية، استيلاء الشعاع على ما قابل الشمس، ثم سرى سرياناً معنوياً داخل القلب، ليكون حكم هذه الحالة الكشف التام من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ليدرك الانسان الكامل هنا أن الحق باقٍ، والخلق فان، وفق تصور: أن الفناء صفة كل ما سوى الله، والبقاء صفة الحق تعالى وحده، بهذا المعنى يحتل القلب في نظرية ابن عربي المعرفية موضع الاختصاص بمعرفة الله، وهي معرفة عصية تنتهي إلى قيمة أكيدة تتلخص بالعجز عن المعرفة الإلهية أو إشاعة ثيمة أن المعرفة بمجال الذات الإلهية مصيرها الجهل التام بفهم أن أي معرفة تفترض بعد تحققها تجاوز المعروف، وهي الإشكالية ذاتها التي شغلت نظريات التوحيد الإسلامي قروناً طويلة.

التحقيق

اعتمدت في تحقيق نص هذا الكتاب على مخطوطة اساسية برقم (٤ / ٧٠٧١) مجموع صوفي، المحفوظة في مكتبة الاوقاف ببغداد، وضمت مجموعة كبيرة من كتب التصوف، ويتضح أن نسخة كتاب (ماهية القلب) قد قوبلت على نسخة أخرى أقدم منها، يبدو من مواضع المقابلة أنها نسخة قديمة وكاملة ربما كانت تعود إلى عصر المؤلف.

وصف النسخة

- عدد اسطر الصفحة: ٢٩ سطراً.
- عدد كلمات السطر: ١٣ كلمة تقريباً.
- عدد الاوراق: ١٦ ورقة من الحجم الكبير.
- نوع الخط: خط نسخ دارج.

وهناك مجموعة من الظواهر الخطية وجدت ضرورة اثباتها هنا، فمن تلك الظواهر: إن الناسخ لا يضع توقفات من أي نوع، ويفتتح الفصول بلفظ (فصل) داخل السطر، وكذلك إثبات السقط على أحد جانبي الصفحة، وإشار إلى ذلك بعلامة معقوفة، وقد رقّمت المخطوطة أكثر من ترقيم وعلى النحو التالي:

- الأول: من الورقة (٢٥٣ وجهاً) وحتى الورقة (٢٦٨ وجهاً) في ١٥ ورقة من القطع الكبير، أي في ٣٠ صفحة.

- الثاني: من الورقة (٢١ وجهاً) وحتى الورقة (٣٦ وجهاً) في ١٥ ورقة من القطع الكبير، أي في ٣٠ صفحة.

- الثالث: من الورقة (١ وجهاً) وحتى الورقة (١٥ وجهاً) في ١٥ ورقة من القطع الكبير، أي في ٣٠ صفحة.

وكانت الترقيمات الثلاثة دقيقة حتى نهاية الكتاب، وقد اعتمدت الترقيم الثالث بسبب انه الترقيم المستقل عن ترقيم المجموع.

وقمت بمجمل الخطوات التي يتطلبها تحقيق أي نص؛ من ترتيب الكتاب بالأسلوب المعاصر في الكتابة، وترقيم فصوله، وتخريج الآيات والأحاديث، والإشارة إلى بحور القصائد، وضبط النص بالشكل في المواضع التي تحتمل أكثر من قراءة، وتنقيط النص بعلامات الترقيم، وتصحيح بعض الأخطاء اللغوية والنحوية مع الإشارة إلى ذلك في الهامش، فضلاً عن إثبات السقط في المتن، والإشارة إلى ذلك في الهامش، ووضعت أرقام نهايات الصفحات في المتن بين قوسين معقوفين، وزودت الكتاب بصور للوحة العنوان وأول وآخر المخطوطة، وأعددت الفهارس الضرورية في نهاية الكتاب، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الكتاب ثابت النسبة لأبن عربي، عن طريق الرجوع إلى متنه والتنبه لإشارات ابن عربي إلى كتابه: (المبادئ والغايات)، فلم نجد أية ضرورة في الوقوف عند هذه المسألة، وقد ذكر الكتاب في (الفهرس التاريخي لمؤلفات ابن عربي)[٨٠] . بقي أن نتوقف عند موضوع فصول

---

٨٠ ـ الفهرس التاريخي لمؤلفات ابن عربي : الجزء الأول .

الكتاب الذي قد يثير عند القارئ لبساً، ذلك إن ابن عربي قد أشار إلى أن الكتاب يشتمل على واحدة وأربعين حلة، ثم عدد (٣٩) حلة في فصل مستقل، وعاد فضمن هذه الحلل في عشرة فصول، وهي مادة الكتاب، معللاً ذلك بحجب بهجته عمن ليس بأهله، فكانت هذه الحلل متداخلة فيما بينها في الفصل، فيوجد في أوله ما في آخره، وفي آخره ما في أوله، أي أن ابن عربي قد ضمن هذه الحلل في عشرة فصول تضمنت كل المحاور التي أشار إليها في خطبة كتابه.

النص

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

الحمد لله القديم العظيم[٨١]، الكريم الرحيم، خالق الأرواح، وفالق الأصباح، ومسخر الرياح، ومصور الأشباح[٨٢] الذي أوجد العالم، ودبَّر فأحكم، وقدَّر فحكم، فعافى وأسقم.

أحمده مع كل حامد، بعدد كل متحرك وجامد، على الدوام والأبد، ثم أصلي على سيدنا محمد.

رأيتك - أصلحك الله تعالى - متطلعاً نحو الإحاطة بماهية القلب على نهج الاستفادة، ورأيت كثيراً من العلماء المشهورين بالفهم واليقين في الفضل أجابوا لمّا سُئِلوا عنه بأجوبة أقرب إلى تقرير الإشكال فيه من رفعه منه، ولم أحمل ما وجدته منهم على نقص فيهم، وإنْ كان الكمال المحض لمستحقه تعالى، ولكن تأوَّلت هذا على عدم أهلية السائل المستحق في مقابلته المنع الصريح، والدفع بجواب إقناعي، بحسب حاله، حذراً من ظلم الحكمة بوضعها في غير أهلها، إذ[٨٣] العلماء أمناء الله تعالى والمأمون لا يخون.

---

٨١ - (العظيم) حاشية .

٨٢ - الأشباح : أشخاص وأجسام .

٨٣ - في الأصل (إذا) .

[من الطويل]:

ومــــســـــتــخــبــــر عن ســـر ليلى رددتـه
بـعـــمـــيـــاء عن ليلى بـغـــيـــر يقـــيــن
يقـــولون خـــبّـــرنا فـــأنـــت أمـــينـهـــا
ومـــا أنا إنْ أخـــبـــرتـــهم بأمين[٨٤]

قال عيسى "عليه الصلاة والسلام": (لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها من أهلها فتظلموهم)، وقال سيد البشر (محمد المصطفى "صلوات الله وسلامه عليه": (الحكمة ضالة المؤمن)[٨٥].

ولما وجدتُك تنشدُ ضالتك، وهي عندي قلت: أنّى فسحة في تراخي الرّد مع تحقيق الأهلية والمحلية، ووجوب البيان، لوجود الإمكان، فبذلت المضنون وأبرزت المصون.

[من الطويل]:

ولَمّا دعـــاني منـك داع أجـــبـــتـــه
بمقـــصـــدك الأقـــصى ومنظرك الأعلى
أبـى الـفـــــضـلُ إلاّ أن يـكـون لأهـله
وأيُّ خــصــال الـفــضـل لسـتَ لهــا أهلا[٨٦]

ولكنَّ بالغي بسؤالك[٨٧] هذا غير مقتصر الاقتصار على جواب يليق

٨٤ـ تمثل ابن عربي بهذين البيتين في أكثر من موضع، انظر الفتوحات المكية ٢: /٢٠، ٢٠٠وورد في المدهش أن البيتين لجابر الجرمي، وورد عجز البيت الثاني كما يلي: فأصبح في ليلى بغير يقين. انظر المدهش ١٠: /٤٢٠.

٨٥ـ الترمذي علم ١٩، ابن ماجة زهد ١٥.

٨٦ـ المدهش ابن الجوزي: ٤٢٠.

٨٧ـ في الأصل (بسواك) ولا يستقيم بها المعنى.

بفحواه فقط، لأنه من قبيل عالم الشهادة[88] وأطرافه متعلقة بأذيال الغيوب[89]، وأسراره في خزائن الملكوت[90]، ومفاتيحها في معادن الذوق[91]، فتحتاج الآن إلى اقتحام عقبات السلوك[92]، ثم إلى الغوص في لُجج بحار المعرفة، ثم إلى استخراج درر الذوق من أعماق أصداف الغيوب، فتنظمها قلادة في عنق الزمان حاكمة على الإمكان لتجلى الغيب في حُلل العيان على منصة البيان، والله تعالى المستعان وعليه التكلان :

وإنْ كنت ذا شح بطيف خيالها
عليَّ حذاراً من عيون الحبائب[93]

[من الطويل]

أغار عليها أن ترى الشمس وجهها
بغير خمار والمحب غيور[94] [١ظ]

---

٨٨ ـ عالم الشهادة : هو العالم المحسوس .

٨٩ ـ الغيوب : جمع الغيب ويريد به ابن عربي ما ستره الحق عنك منك لا منه ، راجع اصطلاحات الفتوحات ٢/ ٧٩ .

٩٠ ـ وهي خزائن المعاني والغيب والوصول إليها من عالم الملك . والمراد هنا رمز المكان (المصدر المكاني) الذي تنبثق منه أعاجيب الصنع الإلهي ، راجع الفتوحات ٢/ ١٢٩ ، وكشف الغايات : ١٧٧ .

٩١ ـ الذوق : أول مبادئ التجليات الإلهية المؤدية إلى الشرب ، راجع اصطلاحات الفتوحات ٢/ ١٣٣ ، ورسالة الاصطلاحات : ٦ .

٩٢ ـ المشي على المقامات بالحال ، لا بالعلم ، وهو العمل ، فكان له عينا ، راجع اصطلاحات الفتوحات ٢/ ١٣٤ .

٩٣ ـ من الطويل .

٩٤ ـ نسب البيت للوأواء الدمشقي ونسب أيضاً ليزيد بن معاوية .

وسأبرز مرادك في واحد وأربعين حجاباً[95] من وراء ثلاثة حجب معنوية، أعبر عنها بالمعاريج؛ لكونها لطائف[96] روحانية، والروحانيات علوية من قبيل المعاريج، وأبتدئ الآن بذكر الحلل ترتيباً، ثم أتبعها البيان تفصيلاً على طريق الإشارة[97]، إلى كل فصل من ذلك في ضمن ما قبله، والذي قبله في ضمنه على وتيرة واحدة، فيوجد في أوله مما في آخره، وفي آخره مما في أوله، ترتبط مقاصده، وتلتقط فوائده، وأحجب بهجته عمن ليس بأهله، بإخراجه عن حيز التعيين التفصيلي إلى أسلوب النسق الجملي على نمط التنبيه الأهلي.

[من السريع]:

فليكتفي من ليس من أهله
بما يرى العالم من جهله
فمقتضى العالم من شكله
يعجز كل الخلق عن حمله
وهو صغير الحجم في خطه
لا تعجز النملة عن نقله

---

٩٥ ـ الحجاب : لفظ قرآني ، الأعراف / ٤٦ ، ص / ٣٢ ، الإسراء / ٤٥ ، وتعامل الصوفية مع الاصطلاح بمعان عدة حسب الحال الذي يتكلمون فيه . وأشار إليه الجرجاني بمعنى المنع والستر ، وحدده ابن عربي على انه مرتبة معرفية فهو مرحلة ما قبل الكشف ، وإن حدده ابن عربي في رسالة الاصطلاحات على انه : كل ما ستر مطلوبك عن عينك ، راجع اللمع : ٤١١ ، ورسالة الاصطلاحات : ١٣٠ ، ١٦٠ .

٩٦ ـ اللطيفة : هي كل إشارة دقيقة المعنى تلوح في الفهم لا تسعها العبارة ، وهي المؤدية إلى التفريد ، وقد يطلقون اللطيفة على حقيقة الإنسان ، راجع اصطلاحات الفتوحات : ٢ / ١٣٢ .

٩٧ ـ الإشارة : نداء على رأس البعد يكون في القرب مع حضور الغير ، ويكون مع البعد في العموم والخصوص ، راجع اصطلاحات الفتوحات : ٢ / ١٢٩ .

وأقرّر كل دعوى من ذلك ببرهان شرعي أو عقلي، ومثال حسي إنْ احتمله الكلام؛ ليثبت في العقل إيماناً؛ لامتناع تحقيق الغيوب إيقاناً في عالم الشهادة، وإن جاز ذلك في عالم الغيب الإنساني الأخص، وهذه فهرست الحُلل:

- الأول: بيان ما دامت عليه الصيغة القلبية في عالم الصور.
- الثاني: وجه تعلق اللطائف الروحانية بالصيغة القلبية، وهو المعراج الأول من المعارج الثلاثة.
- الثالث: بيان مانع اتصال الروحاني بالقلب.
- الرابع: بيان كيفية الفيض الأدنى على الذات القلبية.
- الخامس: بيان الجوهر القابل للفيض بخاصيته.
- السادس: بيان أحكام الفيض المشار إليه، وثمراته، وإشارات الشرع إليه.
- السابع: بيان كيفية اتصال الروحاني بالنور العقلي بواسطة البصيرة القلبية، وهو المعراج الثاني وهو الأوسط.
- الثامن: بيان كثرة الاتصال الروحاني بالنور العقلي وكيفية الفيض الأوسط على عالم القلب.
- التاسع: بيان حقيقة القوة القابلة للفيض الأوسط بخاصيتها، وكيفية العكس الروحاني إلى العالم العلوي على وجه الإشارة، وبيان الإشارات الشرعية إلى هذه القوة على طريق التقريب إلى الإفهام.
- العاشر: بيان ثمرة العكس الروحاني، وكيفية الانشراح المشار إليه على لسان الشرع.
- الحادي عشر: بيان ثمرة الانشراح، ونتائجه، وآثار ذلك في عالم

الغيب، وعالم الشهادة، وبيان ما أشار إليه الشرع من ذلك، وتحقيقه على وجه الإشارة.

- الثاني عشر: بيان كيفية الفيض الأعلى الجاذب إلى المعراج الأقصى، المعبر عنه بنهاية الاقدام في جادة السلوك.

- الثالث عشر: بيان آثار النفس الأمارة وأحكامها في المبتدأ والمنتهى، والفرق بين آثارها وآثار غيرها.

- الرابع عشر: بيان حقيقة الحجاب المانع من الفيض الأوسط العقلي على الفيض الأول النفسي، وآثار الحجاب في عالم الشهادة، وثمراته في علم الغيب العقلي ورجوع الوبال على القوة المحجوبة، وإشارات الشرع إلى ذلك وتأويله.

- الخامس عشر: بيان [٢و] معنى النفس اللوامة، والفرق بينها وبين الأمارة والمطمئنة، وبيان أحكامها في المبدأ والمنتهى، وكونها بحالة وسطى بين الطرفين، وضرب مثال ذلك في عالم الشهادة، وبرهانه على لسان الشارع.

- السادس عشر: بيان حقيقة الإسلام، ومعنى الإخلاص وثمراته ونتائجه في العالمين، ووجه تعلق الكشف به، وتفاصيل الثمرات الإخلاصية، وما ذكره الشرع في ذلك، والمحمود والمذموم من آثار هذه الجملة.

- السابع عشر: في بيان تأثير عالم الشهادة في عالم الغيب الإنساني، وتأثير ذلك في عالم التصريف، وثمراته ونتائجه، وإشارات الشرع إلى ذلك وتأويله.

- الثامن عشر: ذكر كيفية الإخلاص، والكشف الأقصى المعبر عنه بنهاية أقدام السالكين، وأول مقامات الواصلين، وهو المعراج الثالث.

ـ التاسع عشر: في العالم الأحسن وهو العقل الكلي، وذكر مواهبه من خالقه سبحانه وتعالى.

ـ العشرون: في ذكر صفات الغيوب العلوية، ومثال الخلق منها بحسب مواهبهم الإلهية، والتحاق الجزئي بالكلي، وحصول الإتحاد، ونتائجه وثمراته والاستشهاد عليه.

ـ الحادي والعشرون: في ظهور النفس في عالم الصور، [و] النفس المطمئنة بعد فراقها وبيان نتائج اتصالها بعالم العقل، وحصول الانشراح بذلك، وذكر أحوال العبودية، وأقسامها، وبراهينها على وجه التقريب، وذكر أقسام المعبود، والفرق بين الحق من ذلك والباطل.

ـ الثاني والعشرون: في كيفية آثار النفس الحيواني في عالم الجسماني بواسطة القلب، وفيضها على الجوارح الظاهرة والباطنة من عالم الإنسان، وإدراك القلب في غيبه سبب الحواس، وذكر إشارات الشرع إلى ذلك والتنبيه عليه.

ـ الثالث والعشرون: الكلام في اليقين، والاستغراق الروحاني، واتصال الأنوار العلوية بالقلب بعد كمال الطهارة النفسية، وآثار ذلك ونتائجه وإشارات الشرع إليه وتحقيقه وأمثاله.

ـ الرابع والعشرون: ذكر ولاية القلب في عالم الجسد، واختصاص كل عضو منه وجارحه بولاية لا يسد غيره مسدّه، وتعلق ذلك كله بالآثار القلبية.

ـ الخامس والعشرون: كيفية تصرف النفس في ولاية العقل لمخالفته، وموافقته الهوى والطبع، وثمرات ذلك ونتائجه، وإشارات الشرع إليه وتحقيقها.

ـ السادس والعشرون: في آثار ولاية العقل في عالمه بالحق على خلاف دواعي النفس وحزبها، وثمرات ذلك ونتائجه.

ـ السابع والعشرون: في سبق الروحاني المتصرف في الجسماني بسبب المادة الغيبية والبواعث القلبية.

ـ الثامن والعشرون: ثمرات التأثير الروحاني في عالم الشهادة بواسطة الغيب الإنساني.

ـ التاسع والعشرون: ثمرات التأثير الروحاني في عالم الغيب الأدنى بواسطة الصفاء[٩٨].

ـ الثلاثون: في ثمرات الصفاء في الملامح العلوية، والغيوب الإلهية، وتفاوت المواهب بحسب قوة اللمح وضعفه.

ـ الحادي والثلاثون: في كيفية انقلاب البصر الحسي إلى العالم القلبي وآثار الرجعة في عالم القلب الغيبي والشخصي، وكيفية البواعث الغيبية، وثمراتها في عالم الشهادة.

ـ الثاني والثلاثون: في ذكر الأحوال القلبية والمادة [٢ظ] الغيبية، وثمرات الأحوال وآثارها ونتائجها في عالم الشهادة.

ـ الثالث والثلاثون: كيفية العبور من عالم الشهادة الأدنى إلى عالم الغيب الأعلى بطريق الاستدلال العقلي المعبر عنه بالاعتبار والتذكر وإشارات الشرع إلى ذلك.

ـ الرابع والثلاثون: ذكر ثمرات الاعتبار ونتائجه في العالمين على اختلاف صفاته، وآثار ذلك في عالم الشهادة وعالم الغيب الأدنى والأعلى.

ـ الخامس والثلاثون: ذكر ثمرات الفكرة النفسية في العالمين.

ـ السادس والثلاثون: في ثمرات الفكرة[٩٩] العقلية في العالم

---

٩٨ في الأصل (الصفى).

٩٩ النفسية في العالمين . السادس والثلاثون في ثمرات الفكرة" حاشية .

الأدنى، ونتائجها في عالم القلب، وثمرات ذلك من المواهب الإلهية واختلافها بحسب القوة والضعف، وذكر الإشارات الشرعية إلى ذلك، وما يظهر في آثاره من العجائب الروحانية والصفات الملكية.

- السابع والثلاثون: في رتبة الولاية ومواهبها، ومقامات الولي من العالم الغيبي، والفرق بينه وبين النبي "صلى الله عليه وسلم".

- الثامن والثلاثون: في ذكر صفة النبوة، والفرق بين النبي وغيره من أهل الصفاء، وكيفية التصرف النبوي في العالمين: الملكي والبشري، والقول في طرق الوحي إلى القلب في حال النوم وأحوال اليقظة، والفرق بين ما يراه النبي وغيره من ذلك.

- التاسع والثلاثون: ذكر كيفية خلق العالم الأصغر المعبر عنه بالإنسان، وتفاصيل حقيقته صورة ومعنى، وذكر ما يختص بذلك، أو يتعلق به على سبيل الاختصار، وإشارات الشرع إلى ذلك، وذكر الكشف الناسخ المعبر بالفناء عن الفناء وهو النهاية القصوى من مقامات الواصلين.

الفصل الأول

إعلم أيدك الله تعالى بحسن التوفيق، وأخرجك بتقواه من كل ضيق، وأوصلك إلى مرامك بأقرب الطريق، أن صيغة القلب عبارة عن مسمّى مختلف باختلاف محالّه التي ينسب إليها، فيقال: قلب النخلة، وقلب الشجر، وقلب السمك، وقلب الطائر، وقلب الإنسان، وغير ذلك مما لا يحصل مع تفاصيله الاختصار، ولا حاجة بنا إلى التعرض لما جاوز المهم فيما نحن بصدده، إذ المهم الماس في هذا التلخيص بيان ماهية قلب الإنسان، وما يتعلق به صورة ومعنى على سبيل التحقيق الكافي، والإيضاح الشافي، إذ هو المسؤول عنه، فنقول - وبالله تعالى التوفيق - : إن قلب الإنسان عبارة عن لحم صنوبري مجوف مخروط الشكل، محله الصدر، يعبر عنه تارة بالفؤاد، وتارة بالقلب على سبيل الترادف، وكل موضع في القرآن العظيم يذكر فيه الصدر، فهو إشارة إليه، وتنبه عليه، عبارة عنه، نحو قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾[١٠٠]، و﴿قال رب اشرح لي صدري﴾[١٠١]، وقوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾[١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾[١٠٣]،

---

١٠٠ الشرح : ١ .

١٠١ طه : ٢٥ .

١٠٢ الانعام : ١٢٥ .

١٠٣ الزمر : ٢٢ .

وقوله تعالى: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾[104]، إلى غير ذلك مما في معناه، وليس المراد بذكر الصدر ها هنا الصدر نفسه، وإنما كنى به عن الحال فيه المتصل به؛ وهو القلب كما قال تعالى: ﴿واسأل القرية﴾[105]، والمراد أهلها،: ﴿واشتعل الرأس شيبا﴾[106]، والمراد شعر الرأس، وأمثال ذلك كثير في موضوع [٣و] اللغة، وأسلوب القرآن العظيم، وكما أن الصدر في القرآن تنبيه على القلب بطريق الإشارة الاتصالية والمجاورة الحلولية، فكذلك ذكر القلب نفسه غير مقصود لعينه، بل معنى زائد على حقيقته خارج عن صنيعته، له تعلق به صورةً ومعنى، وبيانه أن هذه الحقيقة لها قوة جاذبة بخاصيتها فيض النفس الحيوانية التي امتاز بها ما اتصلت به عن الجماد، كما يجذب المغناطيس بخاصيته الحديد على الوجه المخصوص، ومنبع الجواهر المجذوب فيضه الكبد في العالم الإنساني، كالسراج في المشكاة، فإذا قابل جوهرها الخاص لهذه القوة الجاذبة اتصل نورها بها اتصال الشعاع بالزجاجة الصافية حال مقابلتها المنبع، ثم يفارق من الظاهر إلى الباطن منعكساً بضوئه على صفاء القلب انعكاس الشعاع الفائض على الجسم الصقيل الشفاف منه إلى ما ورائه[107] من الأجسام المستنيرة، ثم يرقى ساطعاً إلى عالم العقل المتصل بالدماغ، فاتصل به اتصالاً معنوياً له أثر في استفاضة نور العقل على حاسة القلب، فيشرق نور العقل الجزئي على صفاء نور عين[108] البصر، وهي إحدى عيني القلب الدراكتين المشار

---

١٠٤ الحجر : ٩٧ .

١٠٥ يوسف : ٨٢ .

١٠٦ مريم : ٤ .

١٠٧ في الاصل (وراه) .

١٠٨ (عين) حاشية .

إليهما في غير موضع من القرآن العظيم، والآثار النبوية، نحو قوله تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾[109]، وقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل﴾[110]، وقوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)[111] و(ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾[112].

وذلك كله ممتنع في رأي العين الجسمية أن تراه سبحانه ـ لما مد الظل، وأهلك أصحاب الفيل وقوم عاد ـ وإنما ذلك تنبيه على النظر القلبي الذي أشرنا إليه. وقال "صلى الله عليه وسلم": (ما من عبد إلا ولقلبه عينان هما غيب ينظر بهما إلى الغيوب فإذا أراد الله تعالى بعبدٍ خيراً فتح عيني قلبه ليرى بهما ما خفي عن بصره)[113]، وقال "صلى الله عليه وسلم": (تنام عيناي ولا ينام قلبي)[114]، وقال: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[115]، وأمثال ذلك كثير في الكتاب، والآثار النبوية، فإذا اتصل فيض العقل بعين البصيرة، التي هي معدة لقبوله بأصل عكسته بصفاتها إلى ساحة القلب على النور الحيواني المتصل به آنفاً، فانبسط القلب لذلك انبساطاً معنوياً، فعبر عنه بانشراح الصدر، فتولد عن ذلك الانشراح الكشف عن العين الثابتة، وهي الخاصة ويعبر عنها بعين اليقين، فتصاعدت أنوار العقل الجزئية فاتصلت بأنوار اليقين

---

١٠٩ النجم : ١١ .

١١٠ الفرقان : ٤٥ .

١١١ الفيل : ١ .

١١٢ الفجر : ٦ .

١١٣ ابن ماجة . تهجدا / ٣٢ .

١١٤ البخاري تهجد ١٦ ، تراويح ١ ، مناقب ٢٤ ، مسلم مسافرين ١٢٥ ، الترمذي صلاة ٢٠٨ .

١١٥ الترمذي تفسير سورة ١٥ / ٦ .

الكلية، فحصل بذلك رؤية ملكوت السماوات والأرض، ولهذه الحالة سأل (موسى) "عليه الصلاة والسلام" ربه فقال: ﴿رب اشرح لي صدري﴾[116]، لما كان الانشراح طريقاً إلى المقصد الأقصى من المقامات البشرية عبر بسؤال ما لا تحصل النهاية إلا به عن سؤال النهاية، ولذلك امتن الحق تعالى على (محمد) "صلى الله عليه وسلم" بقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾[117]، وإنما سُميت هذه العين المشار إليها عين اليقين؛ لأنها طريق العالم الإنساني إلى تيقن المغيبات العلوية والسفلية؛ مما يمكن أن يشهده مخلوق بطريق ما، فيقال عين اليقين، كما يقال لأبواب المدينة: باب البر وباب البحر؛ لقرب الباب إلى ما ينسب إليه، فإذا انشرح الصدر انفتحت عين اليقين، فحصل الإيقان، وهو طمأنينة القلب، وهو طور فوق رتبة الإيمان، كما قال (إبراهيم) "عليه الصلاة[118] والسلام": ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال أوَلَمْ تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن [٣ظ] قلبي﴾[119] فاعترف برتبة حصول الإيمان له، واستدعى رتبة الإيقان بطمأنينة، فأراه مرامه في عالم الشهادة عياناً، وكذلك هذا، فإن الأنوار العقلية إذا اتصلت بها أنوار اليقين العَلية حصل بذلك رؤية ملكوت السماوات والأرض على وجه لا يخالجه ريب، فيحصل للقلب الطمأنينة كما حصل ذلك بالعيان في عالم الشهادة المشار إليه، فهذه النهاية نتيجة نورين قلبيين: الأول نور الحياة المتصل بالقلب، والثاني: نور العقل الفائض عليه بوساطة البصيرة، وإلى هذين النورين الإشارة

---

١١٦ طه : ٢٥ .

١١٧ الشرح : ١ .

١١٨ (الصلاة) : حاشية .

١١٩ البقرة : ٢٦٠ .

بقـوله تعـالى: (نور على نـور)[١٢٠]، ثم قـال: (يهـدي الله لنوره من يشـاء)[١٢١]، إشارة إلى هذا النور الأعظم المعبـر عنه بنور اليـقين، فـهـو مـعـاريج ثلاثة: الأول اتـصـال النور ـ النفس الحيـوانيـة ـ بالقلب، ويمتنع ذلك الاتصال بريون المكاسب الدنيوية المشار إليها بقوله تعالى: (كلا بل ران على قلوبهم مـا كـانوا يكسـبـون) (كـلا إنهم عن ربهم يومـئـذ لمحجوبون)[١٢٢]، وقـوله تعـالى: (أم على قلوب أقـفـالهـا)[١٢٣]، لما كـانت المكاسب الدنيـوية لازمـة لأحـوال السـعي؛ لضـرورة فـقرهـم إلى السـعي، وأمكنهم الاقـتـصـار على قدر الحاجة الضرورية وتجاوزوه إلى ما لهم عنه غنى عاجلاً سميت الزيادة على قدر الحاجة قفلاً، فقال: (أقفالها)، بهاء التـعـريف؛ لكون الأقـفـال لازمـة لطبع البـشـرية غـالبـاً، ولذلك دخلت الشياطين على قلوبهم بسبب أغراضهم النفسية ـ وميلها إلى الاكتساب ـ الدنيئة، فيشاركهم الشيطان في الأموال والأولاد، ويعدهم الفقر ويأمرهم بالفـحـشـاء، كـمـا قـال الله تعـالى: (الشـيطان يعـدكم الفـقـر ويأمـركم بالفـحـشـاء)[١٢٤]... الآية، وقـال تعـالى: (وشـاركـهم فـي الأمـوال والأولاد وعدهم ومـا يعـدهم الشـيطان إلا غـرورا)[١٢٥]، ثم قـال تعـالى: (إن عـبادي ليس لك عليـهم سلطان)[١٢٦]، يعني الذيـن يبـتـغـون بقـدر الحـاجـة من

١٢٠ النور: ٣٥ .

١٢١ النور: ٣٥ .

١٢٢ المطففين: ١٤ – ١٥ .

١٢٣ محمد: ٢٤ .

١٢٤ البقرة: ٢٦٨ .

١٢٥ الإسراء: ٦٤ .

١٢٦ الحجر: ٤٢ .

الأسباب الدنيوية، فلا يتطرق الشيطان على قلوبهم بوسيلة يدخل عليهم، فلذلك تنفذ بصائرهم القلبية في ملكوت ربهم، كما قال النبي "صلى الله عليه وسلم":

(لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لرأوا ملائكة الملكوت)[127]، وهذه الأمراض راجعة إلى خارج القلب مما يلي عالم النفس البهيمية الأمارة لمصالح الجسم فقط، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾[128] بالسابقة الأزلية، التي تكون[129] الخاتمة على وفقها، فيجذب الأسباب إليها ولو في آخر جزء من أجزاء حياته وإن امتد العمر[130] بأوامر النفس المذمومة، وإليه الإشارة بقوله "صلى الله عليه وسلم": (لا تنظروا إلى عمل بني آدم وانظروا إلى ما يختم له به)، وهذا هو المعراج الأول.

أما المعراج الثاني فهو اتصال نور العقل الجزئي بنور النفس القلبي الذي قطع الحجاب الشيطاني، فالحجب الشهوات النفسية، والأعراض الطبيعية، ، حتى اتصل به، واتصال هذا النور العقلي بالقلب بواسطة عين البصيرة التي تمتنع أعمال خاصيتها بالأخلاق الذميمة المتصورة في القلب، وهي التي تدعو إلى حركات الجوارح الظاهرة في ما ليس أنه بسبب الخطوات الباطنة: تقوى النفس، وجاذب الطبع ونتيجة ذلك دخان يتلقى من أرض القلب إلى سمائه فيغطي على البصيرة أكنة، فيمتنع

---

١٢٧ ورد في الاحياء بلفظ : لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات . الأحياء : ١/ ٢٠٨.

١٢٨ يوسف : ٥٣.

١٢٩ في الأصل (يكون) .

١٣٠ في الأصل (العجز) وعلق الناسخ في الحاشية بقوله "لعله العمر" فأثبتناها .

نور العقل [٤و] الجزئي عن الاتصال بالقلب، وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾[١٣١]، وبقوله تعالى: ﴿الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري﴾[١٣٢]، ولولا هذا الغطاء لسمي قلباً غافلاً بإشراق نور العقل بساحته، كما قال تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾[١٣٣]، فتكون لهم قلوب يعقلون بها يعني[١٣٤] بالسياحة ومفارقة عالم الحس بالتجرد عن الأخلاق النفسية الذميمة، وقال النبي "صلى الله عليه وسلم": (العقل نور في القلب يفرق بين الحق والباطل)، وإذا امتنعت البصيرة عن قبول نور العقل واتصاله إلى القلب، وتمادى ذلك انتقل من الأكنة إلى العمى، حتى عبر عن ذلك بالعمى وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾[١٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا﴾[١٣٦]، والاتفاق على أن المراد به عمى البصيرة إذا فارق الدنيا متصفاً به كان ذلك في الآخرة وزيادة، قال (ابن عباس) "رضي الله عنهما" لمن عيّره بالعمى: " نحن نصاب في أبصارنا، وأنتم تصابون في بصائركم" وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾[١٣٧]، يعني باشتغاله بخدمة نفسه، والتمسك

١٣١ الانعام : ٢٥ .

١٣٢ الكهف : ١٠١ .

١٣٣ يوسف : ١٠٩ .

١٣٤ (يعني) حاشية .

١٣٥ الحج : ٤٦ .

١٣٦ الاسراء : ٧٢ .

١٣٧ طه : ١٢٤ .

بأخلاقها الذميمة، ويحشر يوم القيامة أعمى، يعني على ما خرج من الدنيا متصفاً به: ﴿قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا﴾ ﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها﴾[١٣٨] ، يعني العقل؛ بسبب أنه من وراء البصيرة محجوب بظلمات طبعك وأغراض نفسك، فأعرضت عن المجاهدة وعن العمل بما جاء به الرسول مترتباً على وجود العقل في عالم التكليف، ولم تحرص على كشف الأكنة عن بصيرتك بتطهير قلبك من أخلاق السوء قبل أن يتعاضل الداء، ويصير من الأكنة إلى العمى، فيمتنع الدواء، ولو فعلت ذلك لتجلى نور العقل على مرآة قلبك، ورأيت من آيات ربك وتصاريفه في عالمك أشياء عرفت بها نفسك حق معرفتها، فترقيت إلى معراج السعادة بمعرفة ربك، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾[١٣٩] ، يعني نسوا آيات الله تعالى بالالتفات عنها إلى غيرها فحجبهم عن معرفة أنفسهم التي هي طريق معرفته الأوضح، وإليه الإشارة في حق (بلعم بن باعورا)[١٤٠] بقوله تعالى:

﴿الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾[١٤١] ، يعني لما التفت عن دواعي آيات الله تعالى، ولم يقتد بأنوار العقل اقتدى بالشيطان فعبده من دون الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾[١٤٢] .

---

١٣٨ طه : ١٢٥ - ١٢٦ .

١٣٩ الحشر : ١٩ .

١٤٠ (بلْعم) ، أو بلعام بن باعورا ، أو ابن باعور من بني اسرائيل أو مدينة الجبارين ، أو من أهل اليمن ، وقال آخرون انه امية ابن أبي الصلت ، انظر اختلاف الآراء في ذلك : دائرة المعارف الاسلامية ٧ : ٥٨٤ طبعة كتاب الشعب .

١٤١ الاعراف : ١٧٥ .

١٤٢ الزخرف : ٣٦ .

الفصل الثاني

واعلم بأن النفس تكون في المعراج الأول جاهلة لبعدها عن أنوار العقل، وقربها من ظلمات الطبع، ولذلك كانت أمارة بالسوء، وفي المعراج الثاني صارت عالمة بترقيها عن حضيض الجهل إلى جوار العقل لاتصالها بساحة القلب، فهي[١٤٣] في هذه الحالة قريبة من المعصية بقدر قربها من الطاعة، متلوّمة بين الحالين فسميت لوامة، لكن معصيتها الآن أعظم جرماً من جرم معصيتها حال جهلها لقيام الحجة البالغة...[١٤٤]، وإن كان ناقصاً بالإضافة إلى كشف البصيرة، وإشراق أنوار العقل، واليه الإشارة بقوله [٤ظ] تعالى: ﴿وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾[١٤٥]، ومثال التكليف مع وجود الحجاب على البصيرة في عالم الشهادة : عبد نشأ في سرداب مظلم لا يعرف سواه، فأمر سيده بالحراثة وغرس الأشجار والزراعة، وهو حال الأمر في السرداب، فله عذر ما دام آخذ في الخروج من بطن الأرض إلى ظهرها، حتى إذا صار خارجاً من ظلمة السرداب تمكن حينئذ من امتثال الأمر،

---

١٤٣ (فهي) حاشية .

١٤٤ كلمة مطموسة في الاصل .

١٤٥ الجاثية : ٢٣ .

وإن كانت السماء عليها غيم مظلم يمنع من إشراق جرم الشمس على سطح الأرض، فيصلح ما بها من النبت بحرها، وينضج الثمار بخاصيتها، فهو بين أن يبادر في المجاهدة والسعي فيما أمره مولاه راجياً كشف الأكنة عن السماء، وطلوع الشمس على ما أثره بسعيه ومجاهداته، فيصلحه ويكمل صفاته، فيكون ذلك وسيلة له إلى رضى مولاه، فيكون من الذين قال تعالى في حقهم: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾[١٤٦]، وبين أن يخلد إلى مركزه الذي نشأ به تابعاً لهواه يعبده من دون مولاه في ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، فيكون ممن أضله الله على علم، قال تعالى: ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾[١٤٧]، وأضله الله على علم، وكما قال تعالى في حق (ابن باعورا): ﴿أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾[١٤٨]، وهذا المعراج المتعلق بالنفس اللوامة هو الأوسط مع المعاريج الثلاثة، وهي مسافة السلوك، وزمان المجاهدة والرياضة النفسية، فتارة تقرب المدة بالحرص واتصال الألطاف بالحركات الباطنة للجوارح الظاهرة، ولو انه إلى آخر العمر، فيثمر ذلك الهداية بواسطة الفيض العقلي الذي طريقه الكشف عن عين البصيرة، فيوجد الانشراح المطلق، وهو شرح الصدر للإسلام، الذي حقيقته الاستسلام لأمر الله تعالى، وهو أن لا يحرك عضواً من اعضائه الظاهرة إلا فيما هو لله تعالى خالصاً، ولا يخطر بباله خطرة باطنة مما ليس لله تعالى خالصاً، فحينئذ يكون عبداً حقاً لاتصافه بالإخلاص

---

١٤٦ العنكبوت : ٦٩ .

١٤٧ الفرقان : ٤٣ .

١٤٨ الأعراف : ١٧٦ .

باطناً وظاهراً، ومن ثمراته عجز الشيطان عن باطنه وظاهره أن ينفذ له سلطان عليه، كما قال تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾[149]، وقال تعالى: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[150]، ومن ثمراته إجابة الدعاء في مدة العمر مهما سأل، فلو سأل تغيير الصفات بخرق العادات، كما قال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب﴾[151]، إشارة إلى هؤلاء العباد على الخصوص، ومن ثمراته البشرى بمغفرة الذنوب السابقة في مدة المجاهدة وقبلها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[152]، وذلك خطاب قوم تحققوا بمقام الخوف بعد صحة الإخلاص لما تذكروا حال قربهم من سيدهم، وإسرافهم على أنفسهم استحيوا من جلال عظمته، لعلمهم حينئذ بنظره إليهم حال معصيتهم، وكان ذلك القنوط من رحمته، فغلب على قلوبهم لشدة الحياء، فبشرهم بالمغفرة والرضوان في الدنيا والآخرة و[٥و] كذلك قوله تعالى: ﴿يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾[153]، أي لا خوف عليكم كخوف الدنيا، ولا كحزنها على ما فات من الأوقات باطلاً، وكل موضع في القرآن العظيم يذكر فيه العبد ويعرفه بقرينه الرضوان، فهو إشارة إلى ما قلنا، وتنبيه عليه، وتارة يغلب شيطان الطبع فيميل إلى التكاسل وطلب الراحة والعاجلة فيتثاقل إلى الأرض

---

١٤٩ الحجر: ٤٢ .

١٥٠ ص: ٨٢، ٨٣ .

١٥١ البقرة: ١٨٦ ، وقد ورد لفظ (فاني) في الحاشية .

١٥٢ الزمر: ٥٣ .

١٥٣ الزخرف: ٦٨ .

الخبيثة، فيحتاج إلى البواعث الزجرية والمواعظ والتذاكير الحسنة، لتنبيه راقد بواعثه الباطنة، فيتذكر أنه في ظلمة، فيلتفت عنها إلى ضدها، فيبصر الحق، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا﴾[154]، فنبه أنهم مؤمنون، وهم مع ذلك قد أخلدوا إلى مراكز طباعهم بعد إخراجهم من ظلماتها إلى نور أمر الله تعالى، وميدان خدمته، وإلى استجابتهم والتفاتهم بالتذكر إشارة بقوله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾[155]، فبين أن التذاكير الظاهرة إذا أثرن التفاتاً باطناً وابصاراً لم تقدح الأغواء الظاهرة في الأبصار الباطن، وإن كان كفاحاً وشفاها، وتارة تغلب الشقاوة الأزلية في أم الكتاب على العبد، فلا يفقه الدعاء، ولا يسمع النداء؛ بسبب استيلاء ظلمات المعاصي على قلبه، وتراكم سحب الغفلة الطبيعية على بصيرته، فلا يسكن إلا إلى دواعي طباعه الذميمة، وشياطينه الرجيمة، فهو من الذين طبع الله تعالى على قلوبهم، الإشارة بقوله تعالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا﴾[156]، وإن تهدهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً، ومن ثمرات ذلك انطباق القلب بالقبض الذي ضده البسط، بالضيق الذي ضده الانشراح، كما قال تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره

---

١٥٤ التوبة : ٣٨ . و(آمنوا) و(أرضيتم) حاشية .

١٥٥ الاعراف : ٢٠١ – ٢٠٢ .

١٥٦ الانعام : ٢٥ .

ضيقاً حرجا﴾[157] ، كأنما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون، أي لم يعملوا بمقتضى الإيمان من أعمال الخير والمجاهدات في الله تعالى حق جهاده، ولكن نبذوا آيات الله وراء ظهورهم، وأعرضوا عن الذكر الهادي إلى الحق، ورضوا بالضلال، فجعل على قلوبهم رجساً بمعاصيهم، حتى عبر عنهم بالموتى، وقوله تعالى: ﴿أموات غير أحياء﴾[158]، وقوله تعالى: ﴿لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾[159]، ومعلوم أن الكافرين أحياء حياة حسية، فتعينت الحياة المعنوية، وذلك ما أشرنا إليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾[160]، يعني من أعرض عنه كان له معيشة ضنكا في الدنيا وحشر أعمى في الآخرة، ومن يعش نقيض له شيطاناً فهو له قرين، ومن اتبعه خرج من الظلمات إلى النور بالحياة الحقيقية، كما قال تعالى في حق (عمر) "رضي الله عنه": ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾[161]، يعني (أبا جهل بن هشام)، وكل موضع في القرآن يذكر [5ظ] الأحياء في عالم الشهادة بالموت، والبصراء والسامعين بالعمى والصم والبكم، فهو إشارة إلى ما قلنا وتنبيه والله أعلم.

وأما المعراج الثالث: فهو النهاية القصوى، والسعادة الكبرى فلتعلم أن البيان السابق بتقرير القواعد التي ينبني عليها الكلام في هذا المقام

---

١٥٧ الانعام : ١٢٥ .

١٥٨ النحل : ٢١ .

١٥٩ يس : ٧٠ .

١٦٠ يس : ١١ .

١٦١ الانعام : ١٢٢ .

وهو أن الإخلاص سبب الانشراح، والانشراح سبب الكشف عن عين اليقين، وهي الطريق الأقرب من عالم الخلق إلى عالم الأمر؛ لأنها طريق اتصال العقل الجزئي بالعقل الأول، وهو المعبر عنه بالروح الأمري، وهو أول ما أوجد الله تعالى من الحوادث العلوية والسفلية. فخاطبه بأمره، فأودع في ذاته الكائنات فيما بين طرفي وجوده وعدمه في شرفه، وعلى جميع الحوادث بعشر مواهب:

الأولى: كونه أول الحوادث.

الثانية: إنه لم يسبقه شيء على توجه الخطاب الإلهي من غير واسطة.

الثالثة: كونه أول من عرف نفسه وعرف ربه.

الرابعة: كونه أقرب الأشياء إلى جناب خالقه سبحانه وتعالى.

الخامسة: إن كل ما سواه من المخلوقات متعلق به، وصادر عنه بإذن الله تعالى.

السادسة: بكونه الطريق إلى معرفة ربه سبحانه وتعالى.

السابعة: كونه رجاء التكاليف في حق العالمين العلوي والسفلي.

الثامنة: إنه يعلم غيوب سائر الخلق، ولا يعلم غيبه إلا الخالق جلت عظمته.

التاسعة: إنه آخر ما يبقى من عالمي الخلق والأمر، وأول ما يعود.

العاشرة: يقول له الحق: ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك، لذلك قال النبي "صلى الله عليه وسلم": (أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك، بك آخذ، وبك أعطي، وعليك الثواب والعقاب)[١٦٢].

---

١٦٢ كشف الخفاء ومزيل الالباس ، العجلوني : ١/ ٢٦٣ .

وهو المسمى بالقلم في عرف الشارع، قال النبي "صلى الله عليه وسلم": (أول ما خلق الله القلم، فقال له اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة)[١٦٣]، والحديثان يجمعهما معنى واحد، ووجه تعلق هذا الاسم بما قررناه، قوله تعالى: ﴿الذي علم بالقلم﴾ ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾[١٦٤]، فدل على انه مفتاح العلوم بالكائنات على العموم، وهو الذي علم منه (آدم) الأسماء كلها وعجز الملائكة عن مشاركته في ذلك حتى أنبأهم، فهو غيب العالمين، السماوات والأرض، واللوح غيب الأرض فقط، واليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم قال الم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾[١٦٥]، لما جعل لهم سبيلاً إلى شهادة اللوح المحفوظ، وعلم غيوب أهل الأرض بقوله تعالى: ﴿كتاب مرقوم﴾ ﴿يشهده المقربون﴾[١٦٦]، فعند ذلك قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء بناء على ما شهدوه من الرقوم الغيبية المثبتة في اللوح، فعجزهم الله تعالى بإخفاء غيوبهم عنهم في عالم القلم، وأطلع عليها مخلوقاً قد شهدوا غيوب عالمه، وحكم على اللوح الذي لهم سبيل إلى شهادته بالتغيير بقوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾[١٦٧]، فالذي لهم إلى علمه سبيل لا يمكنهم الحكم به على القطع الجازم، لجواز التبدل عليه، والذي لا تبدل فيه لا سبيل لهم إليه، فسبحان من استأثر بغيوب الغيوب [٥و]، وعلم

---

١٦٣ كشف الخفاء ١ / ٣٣٢ حديث رقم ١٠٧١ .

١٦٤ العلق : ٤ – ٥ .

١٦٥ البقرة : ٣٣ .

١٦٦ المطففين : ٢٠ ، ٢١ .

١٦٧ الرعد : ٣٩ .

خفي أسرار القلوب، قال الله سبحانه: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾[168]، وقال تعالى: ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾[169]، وقال تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾[170]، فالعقل من قبيل الغيب الأقصى، لاتصاله بحضرة القدس، وإذا اتصل جزئي هذا العالم الأشرف بكلية، فبالجزئي ان يتصف حال الاتحاد بصفات تجرد عنها حال تسخيره لعالم الصور الشخصية لما كان في سجن الغربة، وطوبى لمن رخى زمام الغريب، وفوض أمراضه إلى العالم الطبيب:

[من الطويل]

فحسبك روح أهبطت عن محلها
من المنظر الأعلى إلى المركز الأدنى
تداوي سقاماً في سجون خبيثة
فحلت بسجن كلما فارقت سجنا
تحن حنين المستهام تشوقاً
وما حيلة العافي الأسير إذا حنّا
أتاها نسيم الوصل عن طول غربة
فرشحها أنساً وأنشأها الأمنا
فمالت إلى أوطانها مستجيبة
إجابة صب خائف آنس الأمنا

١٦٨ الانعام : ٥٩ .
١٦٩ النمل : ٦٥ .
١٧٠ البقرة : ٢٥٥ .

رأت عالم الأجسام بعد فراقه
وذل الاسارى فيه والضيق والكنا
فقالت أصيحابي سلام عليكم
ودادا ولكن لا نعود كما كنا[١٧١]

ومعلوم أنه من كان قريباً من الملك ، متطلعاً على من دونه من الرعية في سياق التصريف ، فبعثه المَلِك إلى بعض الضياع بمصلحة تختص بتلك الضيعة، فمضى إليها ووجد فيها المزابل القذرة، والأنتان الكثيرة النكرة، وأهلها قوم طغام، أجلاف من الخلق، لا يفقهون الكلام، ولا يردون السلام، ولا يعرفون الإسلام، ليس لهم مأوى سوى البساط المدمن، مجردون عن كل خلق حسن، فابتلى بصحبتهم، واضطر إلى تدبيرهم وعشرتهم، ولم يرقب القوم له ذمة، ولا رعوا له حرمة، في تيارهم، وانتظموه في سلك أغمارهم، واستخروه في أقذارهم، وحقروه عن اقدارهم:

[من الطويل]

فصار ذليلاً بعد عز ورفعة
صغيراً وقد كان الكبير المعظما
بدار هوان ليس فيها مسرة
مطاعمها جيف ومنهلها ظما
أسير بأكناف الغواة بجهلهم
بمحتجب أدنى معاريجه السما
تحرك لام اللطافة صاعداً
وتمسكه كاف الكثافة رغما

---

١٧١ من الطويل .

فـيــا حــابس المجــهــول خل ســبــيله

لعلك ترقى عن حــضــيــضك سلَّمــا[172]

ولا جرم إن المنفصل عن عالم الصور من الروحانيات إذا التحق بعالمه اكتسب من خزائن الغيوب أسرارا، حمل[173] إلى القلوب أنوارا، ولعمري أن النفس إذا انتهت إلى ساحة القلب المنشرح الذي قد اتصلت به الأنوار العلوية، والمواهب الإلهية فلا غرو أن يندرج طائفها مع الغفائر، وتفارق ما بقي من طبعها السوء الحقير.

---

١٧٢ من الطويل .

١٧٣ (لعلة تملأ القلوب انوارا) حاشية .

الفصل الثالث

إن تجد الأكثر قد صار معك، لم تسمع إلا يسيران[١٧٤]، لا يبلغك والأحذر ذلك للنفس الطاهرة التي قد فارقت الذميم [٦٦ظ] من الطبع بعد مفارقة عالم الصور بمعناها، وانفصلت عن حضيض البهيمية وقتاً إلى بقاع الملائكة حتى عمرت ساحة القلب، واتصل بها فيض العقل من عين البصيرة، فتلقته بالقبول حتى اتحد بها اتحاد الجزء بكلية، وصارت حينئذ مطمئنة غير نافرة، لوجود المشاركة في الصفات التي كانت منافية من قبل، وصار القلب هناك منشرحاً، فانجلت عين اليقين، فتجلت لها الغيوب، فماجت الجواهر الروحانية الظاهرة في بحار الغيوب الزاخرة، فاكتسبت أنواع الجواهر والدرّ التي كانت خبراً من قبل، فصار الخبر عياناً، والإيمان ايقاناً، وصار مجاز الوصل من حقيقة، وصار مكان الشك حقاً وإيقاناً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾[١٧٥]، وهذا المقام هو المعراج الثالث الذي لا نهاية فوقه في جادة السلوك، ولا مقصد وراءه إلا المواهب الإلهية، فإنها غير متناهية، والطبقات من هذا المعراج متفاوتة

---

١٧٤ الجملة مرتبكة في الأصل.

١٧٥ الأنعام: ٧٥.

في مقامات الوصول، كما تفاوت الأقدام في مسافة السلوك، وهذه الأحوال ذوقية ولا سبيل إلى تحقيقها بالدليل، وإنما أقدمنا على الإشارة إليها ههنا على سبيل التقريب والتنبيه اعتماداً على شاهد الذوق في حق سامع من أهله، فيكون حظا لسمعه، موافقة لقلبه، فإن كان السامع من أطفال الطريقة، جاهلاً بحقيقة الوقاع حصل له من كل امتياز آخر عن التطلع إلى ما لم ينته سلوكه إليه، قبل ذوق المدامة. فليكن كلامنا في حقه كما قال (مهيار): شعر:

[من الخفيف]

فإذا لم أر الديار بطرفي

فلعلي أرى الديار بسمعي

ولقد أردت عن الكلام ههنا لحصول الكفاية، الإفادة من بعض الكلام السابق، فالتفتُ إلى بقية مقيدة تتعلق بما سألت عنه من عالم القلب، بل هي النهاية من فوائد القلب، فرأيت الإشارة إليها وتحقيقها، ليحصل التمام بحسب الإيثار، ولا يوجد الإضجار بمجاورة حد الاختصار، وإن كانت تنطوي على أسرار يهتدي فيها القريب مسافراً، إلا اتحد به منه إليه المقصد.

الفصل الرابع

إعلم أسعدك الله تعالى وأرشدك : أن النفس الحيوانية لما كانت متصلة بالقلب، فيحكم بها في كل ذي نصيب منها من سائر الجسد وجدنا القلب حاكماً والجوارح رعيته، فيفرق على كل قبيل من رعيته ما يختص به بحسب ما يليق، ولما كان الإنسان عالماً صغيراً بالإضافة إلى العالم الكبير العلوي المختصر من الجملة كان كتفاصيل الموجودات العلوية والسفلية وجملها، رأيت ذلك ينقسم إلى ظاهر وباطن، فظاهره كالقشر وباطنه كاللب، بل قد عبر الشرع عن المعنى المختص بالباطن باللب في غير موضع من القرآن العظيم، ثم وجدنا جمهور ظاهره ما اتصلت به الحياة، والأفضل من[176] ذلك ما حصل به الإدراك الحسي، وهي خمسة معانٍ:

حاسة السمع [٧و]، وحاسة البصر، وحاسة الذوق، وحاسة الشم، وحاسة اللمس، وجملة هذه الحواس صادرة[177] عن القلب، إذ هو منبع الحرارة الغريزية، التي هي الفاعلة في عالم الحيوان بإذن خالقها جلت قدرته، ومبداها من القلب، وينشأ إلى كل عضو من أعضاء الإحساس

---

١٧٦ (من) حاشية .

١٧٧ في الأصل (صادقة) ، وما أثبتناه ينسجم مع السياق .

بجهته من الخاصية الروحانية، فيحصل بذلك الإدراك المخصوص على الوجه المخصوص الذي رتبه الحكيم الباري تبارك اسمه، وجلت عظمته، ثم تعود راجعة بما اكتسبته، أو شيء منها من عالم الشهادة فتلقيه إلى القلب، ثم تبعثه البصيرة إلى عالم الحس العقلي المتصل بالدماغ على الترتيب المحكم، فإذا حصل الإدراك الحسي في عالم الشهادة على الوجه المخصوص وقع ما كان منه في شبك الخيال، ثم تلقيه القوة المتخيلة إلى القوة المفكرة، فتميزه حق تمييزه، حتى تلقي ما يصلح الادخار منه إلى عالم الحفظ، وهي القوة الذاكرة التي هي خازن العقل، فإذا استوعى ذلك منها ألقته إليه، ومحلها مؤخر الدماغ؛ لأنها بمعنى الخزانة، وهي الطريق الأقرب إلى القلب، فتصل إليه ما استدعاه بواسطة البصيرة، والمخيلة محلها مقدمة الدماغ؛ لأنها بمعنى المرآة المسامتة للأشياء المتخيلة والمميزة في وسط الدماغ؛ لأنها بين آخذ ومأخوذ عنه، وذلك تقدير العزيز الحكيم، وليس هذا موضع استقصاء الكلام في تفاصيل هذا الفن أكثر من هذا المقدار، إذ القول على ما يتعلق بالقلب فقط، وقد بينا أن الباطن أصل، والظاهر فرع، وإنما تظهر التصاريف الظاهرة الحسية بسبب البواعث الباطنة القلبية، وإذا كان الفرع يظهر فيه الإحساس المشار إليه، فبالحري أن يوجد مثل ذلك في الأصل، نعم قد وجدنا ما افترق في أعضاء الإحساس الخمسة الحاصلة به المحسوسات على اختلاف أجناسها وأنواعها بآلات متغايرة في عالم الشهادة موجوداً مثله في العين القلبية في الغيب الإنساني، بل ذلك المفترق من جملة أحكام المجتمع في هذه الحاسة الواحدة بزيادة حاسة سادسة، وهي النطق، وإنما كان ما يظهر منه في عالم الشهادة كالضوء من السراج، وانشراح نفسه متصل بالباطن،

وكذلك وجدنا الكيفيات المحسوسة في عالم الشهادة تدركها القوة العقلية في الغيب الإنساني بعد زوال المحسوس من إدراك الحاسة الظاهرة التي أوجبها الباطن، ووجدنا القوة القلبية يشار إليها بالإدراك مع عدم إدراك الحواس الظاهرة في تلك الحالة، ويشار إليها بعدم الإدراك مع وجودها على الكمال في عالم الشهادة، ويحكم بأنها لا حكم لها، فثبت بذلك أن الأحكام الظاهرة في الإحساس متعلقة بالباري، وقد نبه الحق تعالى على الحواس القلبية، وأشار إليها في غير موضع مجملاً ومفصلاً، فأما المجمل نحو قوله تعالى: ﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾[178]، فأشار إلى العين بقوله تعالى: ﴿كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا﴾[179]، فبين أن الغطاء [٧ظ] منع من الحصول، مع أن المغطى هي الأعين، دل على أن المحسوسين يحصلان بآلة واحدة قلبية، وقال تعالى تنبيهاً على البصر خاصة: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾[180]، وقال تعالى: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾[181]، وقال تعالى: ﴿فأنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾[182]، وأشار إلى النطق بقوله: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾[183]، وقال النبي "صلى الله عليه وسلم": (من رزق قلباً ذاكراً ولساناً شاكراً

---

١٧٨ البقرة : ١٨ .

١٧٩ الكهف : ١٠١ .

١٨٠ النجم : ١١ .

١٨١ الأعراف : ١٩٨ .

١٨٢ الحج : ٤٦ .

١٨٣ الأعراف : ٢٠٥ .

فهو مؤمن)[184]، وقال "صلى الله عليه وسلم": يقول الحق: (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)[185]... الخبر، وأشار إلى السمع بقوله تعالى: ﴿فاستمع لما يوحى﴾[186]، وقال النبي "صلى الله عليه وسلم"، إشارة إلى الذوق: (إياكم والوصال أني لست كأحدكم أني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني)[187]، وقال بعض أعيان الطريقة: "غذاء الأجساد بالقوت، وغذاء القلوب بالملكوت"[188]. مع أن استعمال أرباب الطريقة لذكر الذوق أشهر من أن يخفى، والإشارة إلى الترويح بقوله "صلى الله عليه وسلم": (روحوا القلوب ساعة فساعة، روحوا القلوب مع الذكر)[189]، وأما اللمس فهو المشار إليه باتحاد المفضى إلى النساء، وهو الغاية الكبرى، والنهاية القصوى من مقامات الواصلين، جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا معهم.

---

١٨٤ ابن ماجه تكاح : ٥ ، وابن حنبل ٥ / ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٣٦٦ .

١٨٥ البخاري : توحيد : ١٥ ، ٤٣ ، الترمذي دعوات : ١٣١ .

١٨٦ طه : ١٣ .

١٨٧ البخاري ، صوم : ٤٩ ، ٥٠ ، الترمذي : صوم : ٦١ . الدارمي ، صوم : ١٤ .

١٨٨ انظر قوت القلوب : الأول ، وعلم القلوب لأبي طالب المكي ، الطبعة المحققة .

١٨٩ ابن ماجة أدب ٥٣ ، الترمذي دعوات ٦ ، النسائي إيمان ، ١ .

الفصل الخامس

واعلم أن ما اتصل بالقلب من الأنوار العلوية، إنما اتصل به بواسطة عين اليقين، وهي العين العظمى التي تحصل المواهب الإلهية للخواص من البشر بسببها بعد الكشف عنها، فمن ذلك شهادة غيب الأرض، وهو اللوح المحفوظ، فيشارك الإنسان الملائكة المقربين في مشاهدة الرقوم الغيبية من الكائنات العلوية والسفلية المسطورة في اللوح، كما قال أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) "عليه السلام":

"لولا آية من كتاب الله تعالى لأخبرتكم بما هو كائن إلى يوم القيامة، قيل: وما هي؟ قال: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾[١٩٠]،".... فثبت أنه شهد ما في اللوح المحفوظ من الكائنات، ولم يسعه الحكم بكونها على الثبات الجازم، والقطع اللازم بجواز المحو والإثبات عليه، وأنه يحكم لا معقب لحكمه، وإذا انكشف عين اليقين، وارتفع الحجاب المانع من أعمالها من قبل اتصل بالقلب حينئذ أنوار زائدة على ما اتصل به آنفاً بواسطة البصيرة، وهذا هو الفيض الأعلى المعبر عنه بنور اليقين، وهو نور الله تعالى الأعظم، المشار إليه في قوله

---

١٩٠ الرعد : ٣٩ .

تعالى: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾[191]، ولم يقل بنوره، كما قال إشارة إلى[192] بادئ السلوك: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾[193]، ولم يقل بالإسلام، وذلك تنبيه على أنه شرح صدره للترقي إلى رتبة الإسلام الذي حقيقته الاستسلام، كما يقال: توضأت للصلاة، وتأهبت للقتال، فإذا اثبت أن شرح الصدر تهيئة للإسلام، وهو الاستسلام لأمر الله تعالى، فلا يأخذ إلا ما أتاه الله تعالى [٨و]، ولا يلم بما لم يؤته، وثمرته رتبة الإخلاص التي تقدم ذكرها، وثمرة الإخلاص الكشف عما يتصل بالقلب من أنوار اليقين، وهو نور الله تعالى الأعظم، فيكون إذا لهذا المقام ثلاث رتب:

الأولى: شرح الصدر للإسلام.

والثانية: الاستسلام للهداية.

والثالثة: الهداية لنور الله تعالى.

وجملة هذا الكلام سابق في صدر الكلام هنا، ثم إذا اتصل بالقلب نور اليقين لم يبق وراءه زيادة عليه، مثاله تفاوت الاتصالات والملامح في عالم الشهادة، والعبور منها إلى عالم الغيب، استدلال أن نقول: إذ بالأنوار العلوية في عالم الشهادة طلوع الكواكب في ظلمة الليل، فيهتدي بها اتصال إلى الجهة فقط، ومثالها في عالم الغيب الإنساني انشراح الصدر، ثم يطلع القمر، فتهدي به إلى الجهة، ثم إلى كثير من الألوان والأشخاص، ولم يكن ذلك حاصلاً بمجرد النجوم، ومثاله في

---

١٩١ النور : ٣٥ .

١٩٢ (إشارة إلى) حاشية .

١٩٣ الأنعام : ١٢٥ .

الغيب الإنساني الإخلاص، ثم تطلع الشمس فتعزل الأنوار كلها، ويصير الحكم لنور الشمس على الإطلاق، مثاله في الغيب الإنساني إشراق نور اليقين على صفاء قلبه، وهو قوله تعالى: ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾[١٩٤]، وإذا اتصل نور اليقين بالقلب اتصل معنى القلب بالرب، ومعنى القلب هو الروح الجزئي المسخر لتكميل الصفة الإنسانية، والمشار إليه بقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) (ثم رددناه أسفل سافلين﴾[١٩٥]، أي جعلنا الوصف الذي تكملت به صفاته محجوباً عن عالمه العلوي بسبب العلائق البشرية، والطبائع الأرضية التي لونها الظلمة، وغاية الحجاب المعبر عنه بالختم والطبع والموت، واثبت أنه رد إلى أسفل سافلين، وهو المركز الأرضي الأولي المشتق منه الدنيا من الدناءة، والدنو إلى حضيض الطبع، ثم استثنى الذين آمنوا، وهم الذين يخرجهم الله تعالى من الظلمات إلى النور، ترفع الحجب والريون والأقفال عن قلوبهم حتى تفضي بهم الألطاف والجواذب إلى الكشف الأقصى الذي أشرنا إليه، فيتخلص بواسطة المسجون من السجن، ويلتحق بعالمه، وهذا مرتبة الفناء الأدنى من الروحانيين، وهو التخلي عن الصفات البشرية، والانصياع بالصفات الملكية، ولكنه مع ذلك يرى نفسه وحالته التي هو متصل بها، وذلك نقص بالإضافة إلى النهاية القصوى، وهو كمال بالإضافة إلى ما قبله من المقامات في النازل من حضيض العبودية الأدنى إلى مقام العبودية الأقصى، وهو رتبة الإخلاص.

---

١٩٤ النور : ٣٥ .

١٩٥ التين : ٤ ، ٥ .

الفصل السادس

لعلك تقول: ما معنى العبودية الأدنى؟ وكيف يسمى من لم ينته إلى رتبة الإخلاص عبداً ؟ ما تقرير بيانه وإيضاحه من المقدمة والنتائج والثمرات المختصة بحال العبودية بعد تحقيقها وكمالها ؟ فأقول:

اعلم أن العبودية تنقسم إلى قسمين: محمود ومذموم، أما المحمود فأوله العرفان، ووسطه عيان، وآخره فقدان، وهي أقرب الأحوال إلى الحرية؛ لأن آخر جزء من العبودية أول جزء من الحرية المطلقة، أما أولها فهو معرفة الله تعالى ومعرفة كل ما سواه به، وأما أوسطها فهو أن يحصل لك [٨ظ] من ثمرات المعرفة معاينة الأشياء على حقائقها، فترى ما سوى الحق فانياً، فيفنى الوجود الفاني في عيانك للفناء بعالم الفناء، فاتصلت حقيقتك بعالم البقاء، فكانت حقيقتك باقية وصفاتك فانية، ولكن لا تدوم هذه الحالة، وهي حالة الفناء عن الفناء، وذلك إذا غاب عن عيني قلبك الوجود الحادث بأسره رأيت الموجود حينئذ، كما قلت في ذلك:

[من الوافر]

إذا غاب الوجود وغبت عنه
فلم تعلم أبُعدُ أم تداني

فـــصـــرت من الزمـــان بـلا زمـــان
وكـنـت عـلـى المـكـان بـلا مـكـان
وجُلْت فـلـسـت أنـت عـلـى يـقـين
عـيـانـاً ثم غـبـت عن العـيـان
وقلت : فُنيتُ قـال الحـال : باقٍ
وقلت : بقـيـت قـال الحـال : فـاني
رأيت الحق فـيـك وأنـت فـيـه
فـصـار العـبـد حـراً في الزمـان[196]

وأما القسم الثاني من العبودية فهو المذموم، فهو عبودية أولها كفران، ووسطها كتمان، وآخرها إدهان، وإلى ذلك أشار الشرع في قوله تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾[197]، قال النبي "صلى الله عليه وسلم":

(ما عبد إله في الأرض أبغض إلى الله تعالى من الهوى)[198]، ثم تلا: (أفرأيت من أتخذ إلهه هواه)..... الآية، وهذا واضح في القرآن العظيم من اتصف بعبادة الشيطان والهوى والإعراض عن ربه، وقال "صلى الله عليه وسلم": (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة والخميصة، إن أعطي رضي وان لم يُعطَ لم يرض)[199]، وهذا من أقبح الذم على لسان صاحب الشرع، وأما وسطها، فهم الذين يكتمون رياء لأهل الباطل، وأن الحق ما يكتمونه، كما قال تعالى: ﴿ولا

---

١٩٦ من الوافر .
١٩٧ يس : ٦٠ .
١٩٨ الدارمي مقدمة ، ٢٩ .
١٩٩ ابن ماجة ، زهد : ٨ .

تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾[٢٠٠]، وأما الحالة الثالثة فهم الذين يذيعون العبارة، ويجاهرون بها الخلق رياء وطلباً للسمعة والصيت والناموس في قلوب الناس، ويظهرون التخشع والتنسك، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم، إنما نحن مستهزئون، فقولهم في الظاهر اخبار، وفي الباطن مجاز، فما أصبرهم على النار، وهذان القسمان الآخران من قبيل الرياء الذي أدناه شرك، قال النبي "صلى الله عليه وسلم": (أدنى الرياء شرك)[٢٠١]، وهذا القسم المذموم من العبودية من بواعث النفس الأمارة، وليس للعقل فيه حظ البتة، بل هو مجرد المخالفة لدواعيه، قلت: كيف يوجد في ولاية العقل مبتدأ الحركات الروحانية في عالم الإنسان غيباً وشهادة ؟

فأقول: إنما أشكل عليك هذا المقدار من هذا الفصل لعدم استقصائك الجمل المتقدمة من كلامنا [٩و] على موضع الإشكال، وقد شرطنا في صدر الكتاب تداخل المعاني في قواعده وفصوله، وتعلق بعضها ببعض في تفاصيل الإجمال، وارتفاع كل إشكال، إبانة لرونق فصله، وصيانة له عن غير أهله، وسأزيد بياناً فيما يلوح لك من الإشكال فيه، فأقول: قد سبق من كلامنا أن النفس الحيوانية إذا اتصل فيضها بمرآة القلب أشرق ضوؤه حتى التحق بعين البصيرة حال صفائها، ثم يرقى إلى عالم العقل المتصل بالدماغ، فلنبين الآن تفصيل ذلك الإجمال قضاء لحق هذا الإشكال، ليظهر في مضمون ذلك جواباً شافياً، وبياناً كافياً في مرامك.

إعلم أن الإنسان حال كمال عقله صار عالمه مملكة تشتمل على

---

٢٠٠ البقرة : ٤٢ .

٢٠١ الترمذي : نذور ٩ ، ابن ماجة فتن ١٦ .

عالمين: علوي وسفلي، روحاني وجسماني، غيبي وشخصي، فجعل العقل كالأمير في هذه المملكة، والنفس هي المكلفة الفعالة، إذ هي الأولى في الجسم والعقل طارئ عليها، ولها قوى تختص بعالمها، كما للعقل قوى تختص بعالمه، وقد اشرنا إليها فيما تقدم، وأما القوى النفسية فهي ثلاث: الأولى تسمى الجاذبة، والثانية تسمى الدافعة، والثالثة تسمى النامية، وهي المرتبة المعدة، ولا حاجة بنا إلى الكلام فيها، إذ لا مدخل لها فيما يتعلق بمقصودنا الآن، فالأولى والثانية يعبر عنهما بقوة النزوع، ونتيجتها الآثار المتعلقة بالشهوة والغضب للإرادة للموافق، والكراهة للمخالف والمفارق، فالشهوة تميل إلى اللذات العاجلة بقوة منها طبعاً، ويسمى ذلك الهوى الطبعي، والغضبية تنفر من المشاق نفوراً بمعناها هرباً منها، وتطلب الاستيلاء والقهر والغلبة على غيرها، وسرعة الانتقام، وتسمى السبعية، وقوى العقل الثلاث بين القوى النفسية المعبر عنها بالنزوعية، وبين الآثار العقلية، فإذا تحركت احدى هاتين القوتين تحت الفكرة، ووقعت الفكرة مما يلي العقل، فتولدت عن تلك الحركة محاسن عقلية محمودة العاقبة، واذا تحركت قوة الفكرة حصلت حجاباً بين العقل وبين عالم الفكر، فتجردت هذه الحركة عن التمييز العقلي لوجود الحائل بين الآلة والفاعل، فيوجد حينئذ عن تلك الحركة مقابح مذمومة، وأي الحركتين وجدت واستولت كانت حاكمة، وانعزل حكم الأخرى، وانبعثت الجوارح في تنفيذه، فإن كانت نفسية استعمل كل عضو وجارحة من جسد الإنسان حينئذ بما لا يوافق العقل، ويتصور الهوى في صورة العقل، وتنضم إليه ظلمة الشيطان مع ظلمة الطبع، فيقع التصرف القلبي في ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد

يراها، وبذلك تنقطع مادة البواعث الظاهرة الصالحة عن القلب بسبب الحركات الظاهرة بالباطل، وتشتغل القوى الروحانية الظاهرة والباطنة في خدمة العدو، فيتصف هنالك الإنسان بعبادة الشيطان والهوى كما تقدمت إشارات الشرع إلى ذلك، ويصير العقل [٩ظ] أسيراً في مملكته، والحكم لعدوه عليه وعلى ما يتعلق به من الرعايا وثمرة ذلك ظلمة القلب وانطفاء نور جوهره الخاص، وذهاب رونق البصيرة لانقطاع الفيض العقلي عن البصيرة، ولكونه محجوباً عن الاتصال الذي اشرنا إليه فيما تقدم، فإن تداركه الألطاف الإلهية لقوة إيمانه أخرج من الظلمات إلى النور، وإن تمادى به الطرد وامتد به البعد صار الحجاب غيماً وطبعاً وموتاً: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾[٢٠٢]، ووجه الاحتراز من هذه الحركة المذمومة الاستهتار بذكر الله تعالى والتمسك بالعروة الوثقى، والاعتصام بالحبل المتين، وتلاوة كتابه المبين وترك[٢٠٣] الترخص فيما يفضي إلى الندم في الحال والمآل، وحفظ النطق من مطاعم الشبهات، والاحتراز من مظان التهم، ومواقع الغرور، والتصرف بالورع الصادق، ومجانبة قرباء التخليط، وحفظ الحواس الظاهرة من مداخل الفتن بسببها بأن يجعل الفكرة العقلية أمامه في سائر تصرفاته وسكناته، لتنحسم مادة الهوى عن ساحة القلب، إذ بسبب به يتطرف الشيطان عليه، ويعتمد على الله تعالى في استقامة باطنه وظاهره، ويخلد إليه في جميع مقاصده، عسى أن يتولاه: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾[٢٠٤].

---

٢٠٢ التوبة: ١١٥ .

٢٠٣ (الله تعالى والتمسك . . . . المبين وترك) حاشية .

٢٠٤ المائدة: ٥٦ .

الفصل السابع

إعلم أن الجوارح مهما تقيّدت عن القبائح تعيّنت عن المحاسن والمصالح، وقد بينا أن حفظ الجوارح الظاهرة من أسباب الاستقامة الباطنة، وإذا استقامت الحركات الباطنة رجعت نتائجها على الحواس الظاهرة، ذلك معنى تأثير عالم الغيب في عالم الشهادة، وعالم الشهادة في عالم الغيب، وصرف الحواس الظاهرة في اقتناص الحقائق من عالم الشهادة، ثم[205] القاؤها إلى الغيب الإنساني، وتحقيق ذلك وبيانه أنه لما كانت النفس الحيوانية منبعها موضع مخصوص من الجسد الإنساني، فينشر حكمها في أجزاء الجسد الظاهرة والباطنة بواسطة القلب، وجب أن يكون أو ما شاكل ذلك، أو كان في معناه، فما اقتضته الحواس الظاهرة أو شيء منها في عالم الشهادة مما يقتضي ما عيّناه واستقامته وكان في معناه، فإنها تلقيه إلى القوة المخيلة إلى المفكرة، فتميزه وتأخذ ما يصلح أن يعول عليه من ذلك، فتلقيه إلى القوة الحافظة، فلا يزال في خزانة الحفظ بعد غيبة المحسوس الموجب عن الحاسة الشخصية، ثم تعمل فيه القوة الفكرية، فتميزه حق التمييز، وتبني عليه تصاريفه ظاهرة وباطنة، وتسمى هذه الصورة نظراً، واليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى

---

٢٠٥ (ثم) حاشية .

الإبل كيف خلقت﴾ ﴿وإلى السماء كيف رفعت﴾ ﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ ﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾[٢٠٦]، وقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مِمَ خلق) ﴿خلق من ماء دافق﴾[٢٠٧]، وقوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان [١٠و] إلى طعامه) ﴿إنا صببنا الماء صبا﴾ ﴿ثم شققنا الأرض شقا)[٢٠٨].... الآية، وأمثال ذلك كثير في القرآن العظيم، وذلك تنبيه على الاعتبار الذي أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار)[٢٠٩] وقوله تعالى: ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾[٢١٠]، والاعتبار هو مأخوذ من العبور، وهو حقيقة العبور من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، والاستدلال[٢١١] بالشاهد على الغائب بواسطة القياس العقلي، وهو المشار إليه بالتدبر في قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[٢١٢]، وقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[٢١٣]، فدل الأول على أن القلب محجوب عن التدبر حال وجود القفل، وهو الاهتمام بالمصالح النفسية، والمكاسب البشرية، والأغراض الطبيعية ببواعث الهوى والشيطان، فقد سبق الكلام في ذلك، ودل الثاني على النفسية على اختيار ما حصل له من عالم الشهادة حساً على محل التحقيق عقلاً

---

٢٠٦ الغاشية: ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ .
٢٠٧ الطارق: ٥ - ٦ .
٢٠٨ عبس: ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ .
٢٠٩ الحشر: ٢ .
٢١٠ النور: ٤٤ .
٢١١ (والاستدلال) حاشية .
٢١٢ محمد: ٢٤ .
٢١٣ النساء: ٨٢ .

بواسطة القوة المميزة وامتحانه بمعيار القياس الصحيح، ليظهر بذلك عدم الاطراد فيما نصه المشركون علة في قولهم: أنه من قبل البشر، والبشر معدن الاختلافات الفاحشة. فأصبح عليهم بأنه لو كان من صفات[214] البشر لشابههم في كثرة الاختلاف، وهذا برهان قياسي من براهين العقل، وكذلك قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾[215]، أي معنى القلب، وهو نور العقل إذا اتصل به، قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾[216]، قبلكم أي لتعتبروا بذلك، فتشهدوا ما يكون منكم بعد الموت قياساً على حال من تقدمكم إلى مسيركم، ومنه قوله تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[217]، وذلك إشارة إلى معرفة النفس، ليحصل بمعرفتها معرفة أحكام الله تعالى في خلقه؛ ولأنها مختصر العالم الأكبر، فيستدل بالأيسر على الأكثر، ومنه قوله "صلى الله عليه وسلم": (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة)[218].

---

٢١٤ (صفات) حاشية .

٢١٥ ق : ٣٧ .

٢١٦ الروم : ٤٢ .

٢١٧ الذاريات : ٢١ .

٢١٨ ابن ماجة : جهاد ٧ ، الترمذي قيامة : ٣٥ .

الفصل الثامن

اعلم أن التفكر مختلف باختلاف حال المتفكرين والمتفكر فيه، فتارة يكون المتفكر القلب، وحينئذ أولى بالمتصلات الروحانية، والتأثيرات الحسية، وتارة توصل إليه انشراحاً وبسطاً، وتارة انقباضاً وضيقاً، ومن أعظم مكاسبه من عالم الشهادة ما حصل بواسطة السمع والبصر، أو كليهما؛ فإن الأحوال القلبية تظهر كثيراً بسبب ذلك، فإن سمع الإنسان صوتاً شجياً، أو إشارة يحصل من مضمونها معنى ملائماً لمراده، أو محركاً لسان كلفة، أو مطابقاً لحالة تختص به، أو نحو ذلك، فإن القلب يتصل به لذلك حركة مخصوصة بحسب مناسبة السماع من عالم الشهادة للحال في عالم الغيب الإنساني المختص بهذا السامع حتى يظهر ذلك الغيب في عالم الشهادة في الحال [١٠ظ]، أو يتراخى بحسب أعمال الفكر في المعنى المؤثر في القلب يصرح به على قدر ما يناسب حاله، فتارة يبكيه، وتارة يضحكه، وتارة يفرحه، وتارة يقلقه، وتارة يولهه، وتارة يبهته، وتارة يصحبه، وتارة يجنبه إلى غير ذلك، وربما اخذ بمجامع القلب، فيمتنع من اتصال فيض الحياة به، فركدت الحواس، وبطلت الأعضاء والجوارح شبيهاً بالموت أزمنة مخصوصة، فإن تمادى الأمر في ذلك وتجاوز الحد مات الشخص لا محالة، وذلك لما اشرنا إليه

من اتصال الحياة بظاهر الجسد وباطنه بواسطة القلب، ومادة القلب من الكبد، فإذا استولى عليه أمر مانع من الاتصال زماناً معيناً لا جرم أن تزهق النفس، ولما كانت أحوال الناس غير متناهية كانت آثار أحوالهم غير متناهية، وإذا ظهرت الحالة إلى عالم الشهادة لم تسكن الحادثة الشخصية حتى تذهب الموجبة المعنوية المتصلة بالقلب، وإن لم تذهب علتها، أو ذهبت لا غيره بها وجوداً أو عدماً بعد تمكن الحالة القلبية وتأثيرها في عالم الشهادة، وربما ركدت الحواس لحال تجلٍ إلهي في تلك الحال، واتصال علوي يعبر عنه بالشهادة والغيبة من غير نقص في عالمه الحيواني، بل حصلت له في غيبته حقائق يصعب مثالها بدون تلك الحال، وذلك من قبيل الوحي النبوي، وصحة الحال في مثل هذه الصورة قليل؛ لأنها تحدث لأرباب الصفاء الكامل لمقابلة الغيب من غير حائل، وأما حاسة البصر وما يتعلق بها من الآثار القلبية فهو ظاهر مشهور نحو العشق والمحبة، والبغض والإرادة، والكراهة وغير ذلك مما في معناه، وكذلك باقي الحواس على القياس، والجميع متعلق بالقلب منبعث إليه في المبدأ، منبعث منه في المنتهى، وقد تقرر أن ما تدركه الحواس الظاهرة في عالم الشهادة في حال اليقظة ينقسم على قسمين:

أحدهما يؤثر في الحال، والثاني يؤثر في المآل، فأما الذي يؤثر في الحال فمثال الأقوال السمعية، والأحوال الجمعية التي شرحناها وأشرنا إلى تفاصيل أنواعها، وأما الذي يختص بالمآل فهو ما اقتصر إلى قوة فكر، وإمعان نظر، واستنباط علة أو حكم أو دليل، أو إلحاق فرع بأصل، أو استدلال بشاهد على غائب، ويعبر عنه أيضا بالحديث الغيبي، وهو المشار إليه بقوله "صلى الله عليه وسلم": (إن من أمتي لمحدثين وإن

عمر منهم)، ويقول الولي والفقير والصادق: "حدثني قلبي عن ربي"، قالوا بل تزيا بما ليس فيه، واظهر من الحال خلاف ما يخفيه، وإنما هذه الرتبة، رتبة الولاية البشرية التي هي دون درجة النبوة، وهم الذين لا خوف عليهم، المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿ألا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾[219] بما يشاهدونه من ذخائرهم عند الله تعالى في خزائن الغيب، كما قال[220]:

"لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً"[221]، (وفي الآخرة) بما رأوه في الدنيا يقيناً بتصرفهم [١١و] فيه حساً، وإذا زاد على صفة الولاية البشرية الخاصة زيادة من قبيل الغيب الإنساني تنبو عن صفات البشر بمناسبتها صفات الملائكة، سمي من اتصف بهذه الصفة نبياً، وإن كان صبياً، كما قال (عيسى بن مريم) "عليه الصلاة والسلام" وهو في المهد: "إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا". والكتاب إشارة إلى العقل الكلي الذي من أوتي نصيباً منه تصرف في عالمه على قدر قوته وضعفه، وإنما سمي الكتاب؛ لأنه يشتمل على جميع الكائنات على ما سبق بيانه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾[222]، وقوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾[223]، إشارة إلى مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو، وهي غيب القلم المعبّر عنه بالكتاب، فلا يعلم غيب ذاته، كما أنه غيب

---

٢١٩ يونس: ٦٢ – ٦٤ .

٢٢٠ يريد (علي بن أبي طالب) .

٢٢١ الرسالة القشيرية: ٩٠ . والقول لعلي بن أبي طالب .

٢٢٢ الانعام: ٣٨ .

٢٢٣ تقدم تخريجها .

جميع الخلق على ما سبق بيانه ، ومفاتيح الغيب يعبر عنها بالغيب الاخفى، وسميت أم الكتاب؛ لأن الكتاب بدأ منها ، وهي سابقته في ذلك، وهو علم الذات الإلهية، الذي لو أن البحار بأسرها وأضعافها مضاعفاً بعدد قطرها ، وذرات الأرض اختلط ذلك كله، ثم غمست فيه إبرة ثم رفعت لكان ما تعلق بها من الماء أكثر مما اتصل به من علم الحقائق بقلوب الخلائق أجمعين: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾[٢٢٤] ، وذلك إشارة أيضاً إلى أم الكتاب المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لا تبديل لكلمات الله)[٢٢٥] ، وقوله تعالى: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾[٢٢٦] ، وكل ذلك إشارة إلى العقل الأول الكلي المعبر عنه بالقلم الجاري بالكائنات، وكذلك قوله في (يحيى بن زكريا) "عليهما السلام": (وآتيناه الحكم صبيا)[٢٢٧] ، والذي لم يتصل بالخلق هو أم الكتاب، وهو مفاتيح الغيب، وقد أشار إلى الكتاب في غير موضع من القرآن العظيم، نحو قوله تعالى: ﴿ألم﴾ ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[٢٢٨] ، إشارة إلى العقل، وقوله تعالى: ﴿أوتوا نصيباً من الكتاب﴾[٢٢٩] ،: ﴿وقال الذي عنده علم من الكتاب﴾ و: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾[٢٣٠] ، وافتخر

---

٢٢٤ الكهف : ١٠٩ .

٢٢٥ يونس : ٦٤ .

٢٢٦ الإسراء : ٥٨ .

٢٢٧ مريم : ١٢ .

٢٢٨ البقرة : ١ – ٢ .

٢٢٩ آل عمران : ٢٣ .

٢٣٠ مريم : ١٢ .

(عيسى) "عليه الصلاة والسلام" بقوله: آتاني كتاب، ومعلوم أن (عيسى) "عليه الصلاة والسلام" في صغره ما أنزل عليه ما يقرأه، وكذلك: ﴿وآتيناه الحكم صبيا﴾[231] ، والحكم، وتعديد الحكمة التي سببها الكتاب إلى الغير، وهذه حالة لا ينالها إلا خواص الأولياء، مثل (علي بن أبي طالب) و(الخضر) "عليهما الصلاة والسلام"، فإنهما آتاهما الله تعالى الكتاب، والقدرة على الحكم به في حق غيرهما، (فالخضر) استدعى محجوباً، فيتفكر فيما وراء الحجاب، فتقع فكرته من قبيل الطبع والنفس الأمارة، فيثمر ذلك حركات الجوارح فيما ليس لله تعالى، ونتيجته الدخان الذي أشرنا إليه أنه يترقى إلى سماء القلب، فيغطي عين البصيرة، ويظلم جوهرة القلب إدراك، وتارة يكون التفكر عن توسط حال، وهي كون النفس اللوامة، فتتفاوت النتائج بحسب تفاوت البواعث على التفكر، فإن ملكا بواسطة العقل [١١ظ] حصل بذلك مواريث في القلوب، وثمرات تدعو إلى الاستزادة في الأعمال الصالحة، والطاعات الخالصة، والاستهتار بذكر الله تعالى، وحبب ذلك إليه، وإشارة إلى ما سواه، وبغض ما يقطع عن ذلك، وكراهيته والفرار منه، كما قال تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾[232] ، فبين أنه إذا وجد في القلب حركات ومواريث داعية إلى طاعة الله تعالى، فذلك دليل على أن الله تعالى يرشده إلى سبيله، فيأخذه في المجاهدة، ليستحق الهداية إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا﴾[233] ،

---

٢٣١ مريم : ١٢ .

٢٣٢ الحجرات : ٧ .

٢٣٣ العنكبوت : ٦٩ .

وثمرات هذه الحالة قوة الأنوار القلبية، وانكشاف الحجب شيئاً فشيئاً، وإذا تزايدت الأحوال كذلك انتهى إلى مقام الصفاء والإخلاص، وتارة يكون الباعث شيطاناً بواسطة طبع النفس الأصلي، وحركات الهوى، فإن الأمر فيه يكون بالضد من الذي قبله، وأما إذا كانت الفكرة عن طهارة النفس وترقيتها عن حضيض الطبع إلى الاستقامة والطمأنينة، فإن النتائج أبداً تكون حسنة، والمواريث الصالحة أبداً متزايدة، فتارة تتجلى[٢٣٤] النفس المطمئنة للنفس الكلي المعبر عنها بالنفس الناطقة، فتفيدها علوماً غيبية، فتنطق بالحكم، كما قال النبي "صلى الله عليه وسلم": (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم)[٢٣٥]، وقال " صلى الله عليه وسلم ": (من أخلص لله أربعين صباحاً أظهر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[٢٣٦]، قال أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) "رضي الله عنه": (تعلمت ألف باب من العلم، ففتح لي من كل باب ألف باب)، وقال "رضي الله عنه" "سلوني عن طرق السماوات فإني أعلم بها من طرق الأرض"، وقال "رضي الله عنه": (لو ثنيت لي وسادة لحكمت لأهل التوراة بتوراتهم، ولأهل الإنجيل بإنجيلهم، ولأهل الزبور بزبورهم، ولو أذن لي لشرحت في ألف (الحمد لله) سبعين وقرا". وقال النبي " صلى الله عليه وسلم : (أقضاكم علي)[٢٣٧] ، وقال "صلى الله عليه وسلم": (أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليقصد الباب)، وكل ذلك تنبيه على أن النفس إذا تطهرت وبدلت أخلاقها الذميمة أتصل بها من

---

٢٣٤ (إلى الاستقامة . . . تتجلى) حاشية .

٢٣٥ ـ ابن حنبل ٢: ٣٤٣، ، مسلم مقدمة ١٧ .

٢٣٦ الدارمي فضائل القرآن ١ .

٢٣٧ ـ البخاري تفسير سورة ٢/ ٧ ، ابن ماجة مقدمة ١١ ، وابن حنبل ٥/ ١١٣

المكاسب الغيبية ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ لأن (علياً) "رضي الله عنه" لم يتفقه فيما ادعاه، ونسب إليه من العلوم بطريق عالم الشهادة المشاهدة، فثبت أن ذلك حاصل له من قبيل الغيب الذي أشرنا إليه، ويعبر عن هذا المقام بالتعليم الرباني المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾[238]، وقوله تعالى: ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾[239] ، طلب منه (موسى) "عليه الصلاة والسلام"، مع أن النبي "عليه الصلاة والسلام" لا يطلب عبثاً، وقال "عليه السلام": سلوني فإن بين جنبي علماً جما لو وجدت له حملة، سلوني عن أسرار القرآن محكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه"، مع ما سبقت [١٢و] الإشارة إليه بقوله في غير موضع، وذلك من آثار قوة الحكم بإذن الله تعالى، فعامة الأولياء أوتوا الكتاب ولم يؤتوا الحكم به، ومن دونهم أوتوا نصيباً من الكتاب وحسب، وخواص الأولياء أوتوا الكتاب والحكم به على ما بينا، والأنبياء "عليهم الصلاة والسلام" أوتوا الكتاب والحكم به، وزيادة صفة النبوة التي أشرنا إليها، وقد أشار إلى ذلك ونبه عليه بقوله تعالى لما ذكر أولي العزم في حمل الأنعام، فقال تعالى: ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة﴾[240]، فالنبي "عليه الصلاة والسلام" يكون مَلكاً في التعليم، وبشراً في التعلم، وذلك أن الله تعالى أعطى كل شيء خلقه ، وأحسن كل شيء خلقه ، وكان من إحسان صنع نبائه في خلقه في العالم البشري أنه جعل له نصيباً من أخصّ خلقه، وهو

---

٢٣٨ الكهف : ٦٥ .

٢٣٩ النساء : ١١٣ .

٢٤٠ الأنعام : ٨٩ .

العقل الكلي، فالنصيب الموهوب للإنسان هو القابل لما يؤتي به النبي من قبيل الغيوب بواسطة الملك، كما تلتصق الزنارة بالخرقة المحرقة، وتنبو عما لا تأويه فيها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر﴾[٢٤١]، وقوله تعالى: ﴿لينذر من كان حيا﴾[٢٤٢]، أي بالمعنى الإلهي المتصل بالقلب ﴿ويحق القول على الكافرين﴾[٢٤٣]، أي الذين كفروا عقولهم عن التصرف، والكفر من التغطية، فحجبوها بأغراضهم الفاسدة وطباعهم الذميمة، حتى سموا كافرين، فصارت معانيهم محجوبة عن التصرف، وصورهم حاكمة عليها، فالعاقل له سبيل إلى قبول ما يخبره الرسول به بواسطة العقل المسخر له، والرسول له سبيل إلى تلقي الوحي من الملائكة بصفة النبوة التي اشرنا إليها وهي[٢٤٤] التي ينبو بها على صفات البشرية، ولولا هذه القوة لما قدر على تلقي الوحي من (جبريل) "عليه الصلاة والسلام"، ولولا تمييز النبي بهذه الصفة من دون غيره لما كان اتصال الوحي به أولاً من اتصاله بغيره حال نزوله، فإن النبي "صلى الله عليه وسلم" كان يأتيه (جبريل) "عليه الصلاة والسلام" بالوحي وفي مجلسه جماعة من الصحابة "رضي الله عنهم"، منهم (عمر)، الذي قال النبي "صلى الله عليه وسلم" في حقه: (إن من أمتي لمحدثين وإن عمر منهم)[٢٤٥]، ومنهم (علي) الذي قال: "لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا"[٢٤٦]، ومع ذلك تخصيص النبي "صلى الله عليه وسلم" بما يأتي به

---

٢٤١ يس : ١١ .

٢٤٢ يس : ٧٠ .

٢٤٣ يس : ٧٠ .

٢٤٤ (التي اشرنا إليها وهي) حاشية .

٢٤٥ تقدم تخريج الحديث .

٢٤٦ تقدم التخريج .

(جبريل) من دونهم في تلك الحال، ولا يشاركه أحد منهم في الإحاطة بما اتصل به إلا عن نشأته، وإنما كان كذلك؛ لأن الله تعالى جعل النبي "صلى الله عليه وسلم" طبيب الأمة بواسطة دواء يرسله على لسان الملك، فجعل فيه قوة ملكية، ليقدر على تحصيل الدواء، ولولا ذلك لعجزه عن ذلك كغيره، وجعل فيه قوة العلاج والمداواة بواسطة الصفة البشرية، إذ لو كان ملكاً لضعف قدرهم عن قدره، وامتنعت الفائدة لعجزهم [١٢ظ] عن الاستفادة منه كما قاله تعالى: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾[٢٤٧]، وقال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم﴾[٢٤٨]... الآية، وقال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾[٢٤٩]، وبالصورة التعليمية حصول المماثلة، أو المناسبة في صفوة القوة القابلة للتعليم، فقال تعالى في التعليم البشري بواسطة النبي "صلى الله عليه وسلم": ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾[٢٥٠]، فتأثير الرسالة للتعليم بحسب مناسبة الرسول للمرسل إليهم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً﴾ ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾[٢٥١]، وذلك حكمة إلهية في استقامة التصريف الأرضي بالأمر السماوي، فتبارك الله رب العالمين.

---

٢٤٧ الأنعام : ٩ .

٢٤٨ التوبة : ١٢٨ .

٢٤٩ الجمعة : ٢ .

٢٥٠ الأنعام : ٩١ .

٢٥١ الإسراء : ٩٤ ، ٩٥ .

الفصل التاسع

واعلم أن من الأنبيـاء "صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين" من يتصل به الوحي في حال النوم بواسطة عين اليقين التي أشرنا إليها، فيحكم بذلك ويرتب عليه أحكامها في عالم الشهادة، كما لو اتصل به ذلك في حال اليقظة بواسطة الملك؛ لأنه اتصل بطريق غير متهم ولا مشكوك فيما ورد عنه، فمن ذلك ما رآه (الخليل) "عليه الصلاة والسلام": ﴿قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك﴾[252]، ثم حتم بذلك وحكم به في عالم الشهادة، ولم يتلوّم فيه على وفق ما رأى في المنام، وهذه الصورة من الرؤيا في حق (إبراهيم) "عليه الصلاة والسلام" يعبر عنها بالجبليّة، وهي رؤية المثل، وكذلك ما رآه نبينا (محمد) "صلى الله عليه وسلم" من قلة حزب المشركين، فقال تعالى في التنزيل: ﴿وإذ يريكهم الله في منامك قليلا﴾[253] ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة﴾[254]، وكذلك قول (يوسف) الصديق "عليه الصلاة والسلام". ﴿إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾[255]، وذلك

---

٢٥٢ الصافات : ١٠٢ .

٢٥٣ الأنفال : ٤٣ .

٢٥٤ الإسراء : ٦٠ .

٢٥٥ يوسف : ٤ .

من قبيل آخر دون الأول؛ لأن الأول رؤية جبلية، وهذه رؤية معنوية؛ لأنها صورة ومعنى، ولذلك احتاجت إلى تأويل، وكان تأويلها منافياً لصورتها ، حتى أوَّل النجوم بأخوته، والشمس والقمر بأبويه، وذلك ظاهر في المباينة، وقد يحصل من هذا القبيل لغير النبي من عامة الناس وخاصتهم، كالذي رأى كأنه يصب الزيت في أصل شجرة الزيتون فأوَّله (محمد بن سيرين) "رحمه الله تعالى" بأنه تحته أمه، وكان الأمر كذلك، ولم يشعر به من قبل، وكالذي رأى كأنه يختم علىَ أفواه الرجال وأرحام النساء، فأوله (ابن سيرين) "رحمه الله تعالى" بأنه مؤذن يؤذن قبل الوقت للصبح، وكان الأمر كذلك وأمثال ذلك كثيرة ، والمبنى في التأويل بحسب حال الرائي، وذلك أن الحواس إذا ركدت [١٣و] وانقطعت مكاسبها من عالم الشهادة حال الرقدة، فإن القوة المتخيلة غير راكدة، بل متحركة أبداً، وفي حال النوم أكثر، لانقطاع شاغل الحواس الظاهرة عنها في حال النوم، ومن شأنها الحركة أبداً، فتارة تتحرك بأغراض تتعلق بحال اليقظة، فتوضحها في مقابلة البصيرة القلبية، ثم تقذفها إلى قبيل الفكرة، وتارة بخلاف ذلك، وتارة يتجلى اللوح لعالم القلب العقلي الجزئي، فتارة يتصل بالغيب، والقوة المتخيلة متحركة بأغراض مختلفة، وحقائق متنافية، فيكون كالماء المتحرك على صفائه وعليه أشخاص مشرفة مختلفة الصورة والهيئات، فيختلف اللمح عن الجبلية، فيحتاج إلى التعبير، كما عبرت البقرات بالسنين في رؤيا (العزيز)، وقصة (يوسف) "عليه الصلاة والسلام" في رؤياه على ما بينا وأمثاله، وذلك النوع اتصال وتعلق بين الرؤيا وبين ما اتصل بها من القرائن والحكمة، وربما وجد التجلي الغيبي للبصيرة القلبية بواسطة العقل،

والقوة المتخيلة متحركة على عكس ذلك القبيل، فحصلت النفس بمعنى غيبي من قبل أن تملي المخيلة ما يعارضه، فانتعش في خزانة الحفظ، ثم وجد مثله في حال اليقظة من غير تفاوت، وهذه من قبيل الرؤية الجبلية التي لا تحتاج إلى التعبير، بل تكون في اليقظة على مثال ما تشخصت في حال الرقدة إلا أن يطرأ عليها المحو في عالم الغيب العلوي أو التبديل، وقد ذكرنا تفاصيل الحركات النفسية في حال النوم واليقظة مستقصىً في كتاب (المبادئ والغايات)، وأقمنا البراهين العقلية والشرعية على كل دعوى من ذلك بحسب الإمكان، وليس هذا الكتاب موضع الإكثار؛ لأنه محل الاختصار، وإنما ذكرنا هذا القدر تنبيهاً على تعلق القلب بحال الرقدة، كما يتعلق بحال اليقظة، فاعلم أن القلب الطاهر من الأخلاق النفسية الذميمة إذا اتصلت به الأنوار العقلية جذبت تلك الأنوار إلى عالمه من المواهب الإلهية ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فتارة يقول الحق تعالى: ﴿لا يسعني سمائي ولا أرضي ويسعني قلب عبدي المؤمن الوادع﴾[٢٥٦]، وهو ما سبق بيانه من رتبة الكشف بواسطة أخلاق العبودية، وثمراته أن يقول للشيء كن فيكون، وفي الظاهر أنه هو القائل في الباطن أن الرب تعالى هو الفاعل:

[من السريع]

ومن أقـــام الحق فـي قـلـبـــه
فـــالملك كـــالذرة في جنبـــه

يـحـكـم بـالحـق وفـــيـــه لـه
لا عـجـبـاً أعـجب من عـجـبـه

---

٢٥٦ تقدم تخريج الحديث .

وإذا انسلخ العبد بالاستسلام عن عالم التصريف، فأنى له العجب مع كونه في عالم التصرف مفعولاً فيه؟ بل أين هو حتى يكون له حال يعجب؟ ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾[٢٥٧]، وتارة يقول: ﴿نزل به الروح الأمين) ﴿على قلبك لتكون من المنذرين﴾[٢٥٨] [١٣ظ]، ومن أطهر قلباً ممن جعل قلبه سبباً لتنفيذ أوامر الله تعالى ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾[٢٥٩].

---

٢٥٧ ـ الأعراف : ٥٤ .

٢٥٨ ـ الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ .

٢٥٩ ـ المجادلة : ٢٢ .

الفصل العاشر

إعلم أن الإنسان الكامل في صفاته عبارة عن ثلاث عوالم؛ عالم الخلق، وعالم التسوية، وعالم الأمر، أما عالم الخلق فهو عبارة عن إكمال الصورة التخطيطية من التراب والماء والهواء والنار، فالإشارة إلى التراب بقوله تعالى: ﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾[٢٦٠]، والإشارة إلى اتصال الماء بالتراب قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾[٢٦١]، والإشارة إلى اتصال الهواء بالطين قوله تعالى: ﴿من حمأ مسنون﴾[٢٦٢]، والحمأ عبارة عن طين دخل عليه الهواء دخولاً مخصوصاً، والإشارة إلى اتصال النارية بهذه الجملة قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾[٢٦٣]، والفخار عبارة عن الطين المفخور حتى يوجد له صلصلة إذا حرك تحريكاً مخصوصاً، ولولا الجزء الناري المودع في تركيب الإنسان - ركناً من أركان الحقيقة - لما كان للشيطان على عالمه سبيل ، ولكن جعل فيه من النار جزءاً شائعاً لا يمكن الاحتراز منه بحال ، فيدخل بالوسوسة على الأنبياء فمن دونهم، ولكنما العصمة إنما تكون من نفوذ سلطانه بمجرد

---

٢٦٠ الحج : ٥ .

٢٦١ الأنعام : ٢ .

٢٦٢الحجر : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ .

٢٦٣ الرحمن : ١٤ .

الاستجابة له، ولذلك لا ينفذ سلطانه على عالم الإخلاص الذي أشرنا إليه من قبل، ولما كان الاحتراز من دخوله ـ بالوسوسة ـ على الإنسان غير ممكن، لم يكلف الإنسان أن يحترز من الوسوسة؛ لأن ذلك تكليف ما ليس في الوسع، وإنما كلف الإنسان مخالفة الشيطان، كما قال الله تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾[٢٦٤]، وذلك إشارة إلى النفس الأمارة واللوامة، فبواسطتها يفعل سلطانه في العالم الإنساني، وهذه الصورة التخطيطية المعبر عنها بعالم الخلق وما يتعلق بها على حسب التحقيق، وأما عالم التسوية فهو عبارة لقبول الروح الأدنى، بمعنى محرك لجسده يشاركه في مطلق المعنى السائر أنواع الحيوان، ويخصص عن غيره فيه بصفات مخصوصة ليس ها هنا موضع تفصيلها، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب (المبادئ والغايات)، ويعبر عن هذا المعنى المحرك للجسد بالنفس في قوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها﴾ ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾[٢٦٥]، إشارة إلى كونها أمارة بالسوء، تقواها إشارة إلى كونها مطمئنة بتقوى خالقها، وقد يتفق الكلام في تفاصيل أحوالها وتصاريفها في الجسد مثبتاً في صدر كتابنا هذا، وأما عالم الأمر فهو عبارة عن الروح القدسي، الذي من عالم الأمر، وهو العقل الكلي الذي سبق الكلام في آثاره في العالمين بإذن خالقه، وهو طور زائد على صفة الإنسان [١٤و] بحيوانية، يعبر عنه بالتقويم الأحسن، والخلق الأكمل،

---

٢٦٤ إبراهيم : ٢٢ .

٢٦٥ الشمس : ٧ ، ٨ .

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[266]، والإنسان بدون هذه[267] حسن، ولكن ليس بأحسن، قال الله تعالى: ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾[268]، والإشارة إلى العوالم الثلاثة في الإنسان بقوله تعالى إشارة إلى (آدم) "عليه الصلاة والسلام": ﴿إني خالق بشراً من طين﴾[269] تنبيهاً على الصورة التخطيطية التي أشرنا إليها، وهو عالم الخلق، ثم قال: ﴿فإذا سويته﴾[270]، إشارة إلى عالم التسوية، وهو تنبيه على النفس الحيوانية الإنسانية التي مثالها في عالم الشهادة المرآة الصقيلة التي هي معدة لقبول الصورة الشخصية على أي هيئة كانت مع ارتفاع الموانع حال وجود المقابلة، فكما أن المرآة تارة تكون صدئة، فيقابلها الأشخاص ولا تنتقش فيها هيآتها مع أنها موجودة الجوهر الذي تنتقش فيه الصور، لكنه ممنوع من أعمال الخاصية؛ لوجود الريون المظلمة على وجهها، ومثاله في الغيب الإنساني للنفس المشار إليها إذا تغطى جوهرها بريون المكاسب الدنيوية، والأخلاق البهيمية والسبعية، فكانت أمارة بالسوء، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، وتارة يكون جوهر المرآة كامل الصقالة، والحقائق المرئيات مقابلة لها على التمام، ولكن الضوء الذي تدرك المرئيات بواسطته معدوم، والليل مظلم، فيتوقف الحكم المطلوب من ذلك حتى يوجد النور الذي يبصر به، فإذا طلع الصبح: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾[271]، وظهرت الأشكال في المرآة من غير

---

٢٦٦ التين : ٤ .

٢٦٧ (هذه) حاشية .

٢٦٨ غافر : ٦٤ .

٢٦٩ ص : ٧١ .

٢٧٠ ص : ٧٢ .

٢٧١ الزمر : ٦٩ .

تكلف ولا تحويل، بل بمجرد ارتفاع الموانع، ومثال ذلك في عالم الغيب الإنساني النفس اللوامة، فإذا اتصلت بها المادة العلوية، والألطاف الإلهية اهتدت فأطاعت، وإذا غلبت ظلمة الجبلة والهوى الشيطاني خالفت وعصت: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[٢٧٢]، وتارة تكون الأنوار أبداً متصلة بجوهرها الكامل الصقالة، والحقائق مقابلة لها على كمال الصفات المطلوبة، فلا تزال عالمة ومعلمة من غير نقص، ومثالها النفس المطهرة التي أهلها الله تعالى لقبول الحقائق الروحانية، والعلوم العلوية والسفلية، ولكنها لا ضوء عندها حالة التهيئة، وهي حالة التسوية، كما قال تعالى: ﴿ونفس وما سواها﴾ ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾[٢٧٣]، وذلك تنبيه على خلوّها في بادئ الأمر من الهداية، حتى اتصلت بها الموهبة الإلهية باتصال النور الأمري بمعناها، فلما اتصل بها النور الأمري المعبر عنه بالروح القدسي ظهرت آثار الحكم الإلهية في جملة هذه الصورة المكملة، وعند سجد الملائكة (لآدم) "عليه الصلاة والسلام" بفاء الحكم، وهو استدعاء السجود للملائكة مترتباً على وجود هذا المعنى، منوطاً بقوله تعالى: ﴿فقعوا له ساجدين﴾[٢٧٤]، أمرهم بالسجود بفاء التعقيب، فكان الروح الأمري بمعنى العلة الموجبة للسجود، بل كان السجود صورة للصورة، ومعنى للمعنى، ولذلك خفي عن إبليس حقيقة [١٤ظ] المعنى، فوقف مع الصورة فقال: خلقتني من نار وخلقته من طين، ولم يلتفت المحجوب إلى أن (آدم) بقي مع صورته

---

٢٧٢ النور : ٤٠ .

٢٧٣ الشمس : ٧ – ٨ .

٢٧٤ الحجر : ٢٩ .

التخطيطية المتممة من العناصر الأربعة بباب الجنة حيناً من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا، كما قال تعالى، فلو أن السجود للصورة التي ظهرت لإبليس لكان السجود لها يوجد في تلك الحال، لوجود العلة، وكيف وقد قال تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا﴾[٢٧٥]، ولما أكمل خلقه بالنفخة الأمرية، قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[٢٧٦]، فهذه الصورة الكاملة عبارة عن لب في قشرين؛ فالقشر الأول: هو الصورة التخطيطية، وما يتعلق بها من المكاسب والحركات البدنية، والهمم القلبية فيما يتعلق بمصالح الصور والإرادات الدنيوية ،وهو الحجاب الأول الذي إذا قطعه الإنسان بإطراحه رقي معراجاً من المعاريج الثلاثة ـ للسعادة ـ ثم يلقاه الحجاب الثاني، وهو ما يختص بعالم النفس من الأخلاق الذميمة نحو الكبر والعجب والشح والطمع والحقد والحسد والمراء والغضب والخيانة والكذب والقنوط والشره والنميمة والغيبة وحب النفس وطول الأمل وحب التعظيم والتزين للخلق ونظر الأعمال والاعتماد عليها ورجاء الخلق وخوفهم وجميع ما للنفس فيه حظ عاجل دنيوي مجرد عن محض الإخلاص كائناً ما كان، فإن ذلك كله حجاب عن الحق، وما كان من ذلك فهو متعلق بالقلب مما يلي البصيرة التي أشرنا إليها آنفاً. فتارة يتصف بالكثافة بانضمام بعض الأخلاق إلى بعض، وتارة توصف باللطافة بانسلاخ بعضها عن بعض، فإذا ارتفعت بأسرها عن القلب وتبدلت بضدها من الأخلاق الحسنة نحو: التواضع والصدق والكرم والحلم والإيمان والوفاء والصبر والصفح

---

٢٧٥ الإنسان : ١ .

٢٧٦ التين : ٤ .

والحياء والفقر والقناعة والرضا والعفة والتقوى والأمانة والصيانة والورع والتوكل واليقين والخشية والتودد والعفو والإيثار والإعانة والرحمة والشجاعة والمجاهدة والحكمة والإخلاص والمعرفة والعبودية، فإذا اتصفت النفس بهذه الأخلاق الحميدة عوضاً عما تقدمها من الأخلاق الذميمة ارتقى القلب معراجاً ثانياً إلى السعادة الثانية[٢٧٧]، فالأولى[٢٧٨] يعبر عنها بالفناء عن عالم الصور، وهذه الحالة يعبر عنها بالفناء عن عالم المعاني، وهو الفناء الأوسط الذي ليس بعده إلا النهاية، وهو الفناء عن الفناء، وهو مقام الحرية، فإذا اتصف القلب بهذه الأخلاق الطاهرة، وتجرد عن الأخلاق النفسية شارك الملائكة في خصوص العبودية، واتصلت بالقلب مواهب علوية إلهية عند النهاية إلى هذا المقام شاغلة عن الالتفات إلى سواها، ثم استولت على صفاته القلبية استيلاء [١٥و] الشعاع على ما قابل الشمس من غير حائل، ثم سرى سرياناً معنوياً في أعماق عالم القلب، حتى صار مستغرقاً به فيه منسلخاً عنه له، فإن نطق نطق به، وإن تحرك تحرك فأليه، وإن دل فعليه، ولا يزال كذلك حتى يبرز حكم هذه الحالة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فيقطع العلائق الشخصية بأسرها، حتى لم يبق لعالم شهادته حظ من محسوس ما، فإذا تجرد عن جميع العلائق الفانية يوجد بالحقائق الباقية، كما كان من قصة (إبراهيم) "عليه الصلاة والسلام" لما قيل له: أذبح ولدك لمكانته من قلبه، فلما استسلم لأمر الله تعالى، وأخذ في امتثال الأمر وعلم الله تعالى أنه لم يبق لولده موضع في قلبه فداه، وأقاله من البلوى، وكذلك

---

٢٧٧ (الثانية) حاشية .

٢٧٨ في الأصل (الأول) ودون على الحاشية (فالأولى) فاثبتناه .

(موسى) "عليه الصلاة والسلام"، فإنه اتصل بمقام المناجاة ، [illegible] مخلوق يعتمد عليه، فقال له ربه تعالى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾[279]، لينبه من رقدة الغفلة، ويعلم انه لا يسع مقام العبودية التفات إلى غير المعبود الحق، ولا اعتماد إلا عليه. فيلقي العصا من تلقاء نفسه، فلم ينتبه وقال: ﴿هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾[280]... الآية، فأكد الاعتماد على الغير بإقراره بلسانه طوعاً، فقال تعالى له: ألقها فلما صارت حية هرب منها فناداه لسان الحال إذا أنت تعتمد على ما يجوز أن يتغير، فيصير مخوفاً تهرب منه بعد السكون إليه، فمالك والاعتماد عليه، وأما السر المناسب لما نحن فيه فهو أن (موسى) "عليه الصلاة والسلام" كان يعتمد على العصا لما كانت نفسه موقنة أنها عصا ، فلما صارت حية أنخلع موضعها عن قلبه، وارتفع الاعتماد عليها من خاطره، وبقي قلبه حينئذ خالياً يصلح للمناجاة، فقال له عند ذلك: خذها ولا تخف، فلما أن أخذها عرف السر في ذلك، والمراد به، فلزم مقام التأدب، وقيل انه لقيه إبليس على جبل الطور في أواخر عمره، فقال له: يا إبليس بئس ما صنعت بنفسك بمخالفتك وامتناعك من السجود (لآدم)، فلم فعلت ذلك؟ فقال: لأني ادعيت محبته، فلم أتوجه بالسجود لغيره، امتنعت ورأيت العقوبة أحب إليّ من كذب دعواه بسجودي لغير من أدعي محبته، وأنت (موسى) أدعيت محبته، ثم قال لك: انظر إلى الجبل، فنظرت إلى الجبل، ولو كنت غمضت عينك كنت قد رأيت ربك، ولا جرم أنه لا يراه إلا من عمي عما

---

٢٧٩ طه : ١٧ .

٢٨٠ ـ طه : ١٨ .

سواه، فاجهد أيها الأخ الصالح الموفق لأعظم مصالحك، المحقق لأشرف الملامح في تخليص حقيقتك من رقيقتك، وابقَ بجمعك في تفرقتك، وارقَ بعلمك عن عالمك، فالقَ معناك في صورتك، والقِ عصا أعمالك من كف آمالك، واسمُ عن عالمِ الملك إلى عالم الملكوت، ثم انظر بالحقيقة الكاملة إلى هوية فيك[281] له، واغمض عما سواه فإنك تراه، شعر:

[من المتقارب]

فــتــفـنى الحــقــيــقــة عن ذاته
ويخـفى الفنا عن عـيـان الحـقـيـقـه
وتـبـــقـى بـلا أنت فــــرداً بـه
انيـسـاً تعـوم بحـاراً عـمـيـقـه [١٥ظ]
وتَقْـدم من غــيــبــهــا ظافــراً
بـكـل إشــارة ذوق دقــيــقــه
تميت الحــجــاب وتحــيي اللـبـاب
وهـذا نـهــايـة علم الطـريـقـه

جعلنا الله تعالى وإياك ممن أنعم عليه بجواذب الألطاف، فطهر ذاته من رذائل الأخلاق، وقبائح الأوصاف، ووفقنا لمعاملته ومعاملة خلقه بالعدل والإنصاف، وعرفنا أهل ولايته وخواص حضرته، كما عرف رجال الأعراف، فنفع بكتابنا هذا من اتصل به من خلقه، وأعانه على فهم مضمونه، ومطاوي أسراره، والقيام بواجب حقه، وبصره الحق بنور اليقين، وجعله من المتقين السابقين والصديقين والشهداء والصالحين، وبرحمته علينا وعلى كافة المسلمين، والحمد لله على نعمائه، والشكر على آلائه.

---

٢٨١ (فيك) حاشية .

مصادر ومراجع المقدمة والتحقيق

١-إحياء علوم الدين، الغزالي، أحمد البابي الحلبي، القاهرة، دت

٢-التدبيرات الإلهية، نيبرج ليدن ١٩١٩ مع إنشاء الدوائر ويليه عقلة المستوفز.

٣-الحلاج، الأعمال الكاملة، تقديم قاسم محمد - بيروت شركة رياض الريس ٢٠٠٣ .

٤-الحلية لأبي نعيم الاصبهاني، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٣٣.

٥-دائرة المعارف الإسلامية طبعة كتاب الشعب دت.

٦-الرسالة القشيرية، أبو القاسم القشيري، تحقيق عبد الحميد محمود ومحمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٦.

٧-الرعاية، المحاسبي.

٨-سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٥٣.

٩-سنن أبي داود، تعليق احمد سعيد علي، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة ١٩٥٢.

١٠-سنن الترمذي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، مصطفى البابي الحلبي، وأولاده القاهرة ١٩٣٧.

١١-سنن الدارمي، مطبعة الاعتدال، دمشق ١٣٤٩هـ.

١٢-شرح مبتدأ الطوفان - ابن عربي - تحقيق قاسم محمد عباس وحسين محمد عجيل، المجمع الثقافي، أبو ظبي ط ١- ١٩٩٨.

١٣-صحيح البخاري، القاهرة محمد علي صبيح وأولاده دت.

١٤-صحيح مسلم، القاهرة محمد علي صبيح وأولاده ١٩٦٠.

١٥-طبقات الصوفية، السلمي، تحقيق شريبة، نور الدين جماعة الأزهر للنشر والتأليف القاهرة ١٩٥٣.

١٦-الفتوحات المكية، ابن عربي، دار صادر دت أربعة مجلدات وهي مصورة عن طبعة دار الكتب العربية الكبرى، مصر ١٣٢٩.

١٧-فصوص الحكم، ابن عربي، نشرة أبو العلا عفيفي دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٤٦.

١٨-فلسفة التأويل، دراسة في تأويل القرآن عند ابن عربي، د نصر حامد أبو زيد، دار الوحدة - دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٣.

١٩-الفلسفة الصوفية عند محيي الدين بن عربي، رسالة دكتوراه بالانكليزية لأبي العلا عفيفي جامعة كمبردج ١٩٣٦.

٢٠-الفهرس التاريخي لمؤلفات ابن عربي، رسالة دكتوراه بالفرنسية، عثمان يحيى، مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٦٤.

٢١-كشف الخفاء ومزيل الألباس، العجلوني، دار إحياء التراث العربي ط ٢ بيروت ١٣٥١هـ.

٢٢-مسند أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت دت.

٢٣-المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين ونشره د - أ - ي ونسنك ود - ي- ب منسج، مطبعة ابريل ليدن ١٩٤٣.

٢٤-مقامات القلوب، أبي الحسين النوري - مخطوط أوقاف بغداد، ٧٠٧١.

٢٥-من تراثنا الصوفي، محمد كمال جعفر.

٢٦-مواقع النجوم، مخطوط، دار صدام للمخطوطات:

27 - Creative Imagination in the sufism of Ibn Arabi, Corbin Hene trans. By Ralph Manhein, Bolling Seriesxci, Prinston. Vniver Press, 1969.

28 - Reading Sfrom the Mystics of Islam - M - Smith, London. 19.

إن التحليل الذي يقدّمه ابن عربي في كتابه هذا يعتمد بشكل كبير على تراث روحي وإشراقي سابق عليه، فنجد أن آراء شيخ الإشراق واضحة إلى حد كبير في نص ماهية القلب، الكتاب الذي خصصه ابن عربي للقلب الانساني بوصفه اداة للمعرفة الذوقية، بعد ان قام بمراجعة كل المواقف الروحية والإشراقية والعرفانية من القلب ليصوغها ضمن نظريته في المعرفة، وان اتبع التقسيمات السابقة القائمة على الثنائيات، ومع انه قدّم تقسيمات عدة للقلب الا انه توقف كثيرا عند فكرة ان القلب المؤمن وحده هو مجال المعرفة، بفهم ان هذا القلب موضع الأنوار لأن الحواس جميعا تستمد ممارساتها من نور القلب. ان نص هذا الكتاب عرض ثيوصوفي للمعرفة القلبية، وهو وثيقة نادرة من تراث ابن عربي بصورته الاشراقية، وثيقة تكشف عن صورة أخرى كانت غائبة من تراث الشيخ الأكبر.


ISBN 2-84306-009- X
9 782843 080098